الطبعة 2

أيّوب الحجلي

أبواب الروح السبعة

رحلة في رحاب الذات

رواية

دار اكتب

٢٣٧٨٧٨

أبْوابُ الرُّوحِ السَّبعةُ

أبواب الروح السبعة

رحلةٌ في رِحابِ الذّات

رواية

أيوب الحجلي

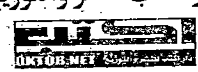
تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 10676 / 2016

- I.S.B.N: 978-977-488-467-2

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، 2016 م

أبوابُ الرّوحِ السّبعةُ

رحلةٌ في رِحابِ الذّات

أيوب الحجلي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



القُوّةُ المُقَدّسَةُ دَاخِلَنَا خَرْسَاءُ؛ لأَنَّ الكَوْنَ خُلِقَ بالصَّمْت

أيوب



قَبلَ البدايةِ

تَرَاجَعْتُ إلى الوراء خُطوةً خاطفةً طويلةً لأتفادى طعنتهُ المُستقيمة، بعد إصابتي بسَهمٍ في فخذي اليُمنى، ولكن قبل ابتعادي عن مَدَى سلاحه شعرتُ بأن نونه قد شقَّ ذراعي، لم أشعرْ بأيِّ لونٍ من ألوان الألم، ولكن سَرتْ في يدي بُرودةٌ تَعربشتْ على ذراعي وكتفي جعلتهما يرتجفان.

تَقهقرتُ قليلًا وأنا أحاولَ التماسُكَ مُتجاهلًا إصاباتي المتتالية، وكان جلُّ اعتقادي أني مستعدٌّ لغرزِ سَيفي في عِظام رقبته، وقفتُ مُتحفِّزًا وحَذرًا، رأيتُه يقتربُ مني، نَبرْتُ سيفي أمامي لأبعدَهُ عني، ولكني أدركتُ أنهُ لا يزال بعيدًا عن مدى سلاحي، عندها فقط أحسستُ بأني وقعتُ فَريسةَ عدم الاتزانِ، وأني فَقَدْتُ تَركيزي، قد تَجاوَزْنا لأكثر من نصفِ ساعةٍ، وكانت الجولة وشيكةً على نهايتِها، وأنا أفكر في أناملي التي بدأت تَهربُ منها حياتي، دَبيبُ نملٍ يمشي

فيها. لم أستطع مَنْعَ نفسي ألّا أنْظُرَ، وعرفت أن النمل هو سيلان دمي النازِف والذي كان شِبْهَ مُتخثّرٍ، وقد غطَى يدي، وكان يتقطر من رؤوس أصابعي، رجعتُ بنظري إليه، وكأن الزمن قد طال في هذه النظرة، وللمرة الأولى أشعرُ ببطءِ الزمن، نظرتُ إليه ولكنه كان قريبًا جدًّا حتى أني لم أقدر أن أُميّز طُولَ سَيفه... صدمةٌ رجّتني وشعرتُ أن رعشةً سَرت بكل بَدَني، ووجهه مُقابلَ وجهي، كان متنديًا من جرّاء الجهد في مبارزتي، عيناه تلتمعانِ بقسوةٍ، ولكن صوتَ صياحهِ تلاشى وخبا، ودأبت تُشرِقُ على وجههِ تقاسيمُ الارتياح، كالشمس التي تسطعُ خلف كثيف التجعُّداتِ السوداء في الأعالي، أشرقَ وجهُه – بالتحديد – عندما شَعرَ أني لا أستطيع التقاطَ أنفاسي، وبدا يضرب الألم صدغي...

تراجَعَ عني، وأيقنتُ عندما استَلَّ سيفَه من صدري أنه كان قد خرج من ظهري، تراجَعَ خُطواتٍ قصيرةً، وسيفُه مُشْهَرٌ أمامي بحذر– ربما اعتقد أني لن أتأثر بطعنتهِ – جُلتُ ببصري الذي بدأ يتلاشى حولي، لم أرَ سوى أشباحَ جنودٍ تتحرك في الضباب، صَمتٌ ثقيلٌ مُزعِجٌ عَكس صدى دقاتِ قلبي التي راحت تتخبَّطُ في كامل بدني.

بعدها شعرتُ أني مُمددٌ فوق الكثيف والحرارة تبارحني... عندما بدأتُ أنسلُّ من الفتحة في صدري إلى الأعلى، أيقنتُ أني متُّ أو أني ذاهبٌ في طريق الموت، وأن روحي تفارِقُ جسدي، والضِّيقُ الذي

رافقني لعدم قُدرتي على التنفُّسِ قبل ثوانٍ اضمحلَّ وتلاشى، وكأني لم أَعُدْ بحاجةٍ للتنفس... ربما.. هنا تضاجمت الأسئلة على ذِهْني...

لماذا أنا هنا؟

لماذا انتهت حياتي فوق هذه الأرض الرملية؟

لماذا أَزهقتُ تاريخي المعرفي بحدِّ سيفٍ قاطعٍ باردٍ صلبٍ صلد؟

ولكن لم أعُدْ أستطيعُ العودة، أو أني لم أرغب بالعودة، عندها فقط تذكَّرتُ الحكيم في معابِدَ الحكمة هناك أعالي جبال الهيمالايا...

اقتربَ مِنِّي وكالعادة كانت ابتسامتُه المُشرقة هي التي تَربط خيوط انتباهي دائمًا، بعد أن بقيتُ أسبوعًا هنا في هذه الغرفة لا شيء سوى الأكل والنوم والتجّوال في أرجاء الحديقة الخيالية المُحيطة بالمعبد، وكنتُ عند ذاك الينبوع الساحر، اقتربَ مني بخطواتٍ هادئة وفي يدهِ زهرةٌ كبيرةٌ اجتثّها من أحد الأغصان الوارفة المتدلية حولنا، ناولني إياها قبل أن يسمع مني كلامي الغاضب، أني هنا منذ فترةٍ، وأنا لم أرَ أحدًا أو لم أعرف أين أنا أو لم أتحدث مع أحد... ولكن ابتلعتُ غيظي وهو يقترب ويبتسم، ناولني إياها وعندما هَممتُ أن أمسكها من أصابعه تحولت إلى رذاذٍ ذهبيٍّ اندفق على أناملي...

في دوامة ذهولي وصمتي واستغرابي الصامت قال:

– أتعتقد أن ما تراه وتلمسُه وتشتمُّه هو الحقيقة؟

إن الحقيقة هي الوعي المعرفي داخلنا، فإذا أدركتَ هذه الحقيقة أدركتَ قانون ما حولك ماديًا وملموسًا؛ فهو جزءٌ من أجزاءٍ كثيرة، وحقيقتنا المعرفية أقوى من الحقيقة المرئية...

لم أُحدّثهُ أو يحدثني قبل هذه الحادثة قط إلا ببعض الكلمات الضرورية... فأنا أتذكر أني دخلت إلى حديقة المعبد بعد أن ارتقيتُ الدَّرَجَ المُستقيم الطَّويلَ، سُحقًا لذاك الدرج.. هل هو أَلْفُ درجةٍ؟ لا أدري لماذا رصفوه بهذا العلو؟! ولا أدري لما هو هنا؟! دخلتُ الحديقة مساءً... بدا عليها أنها مُرتّبةً ومنظمةً، ينبوعَ الماء في وسطها مع بحيرته كزهرة اللُّوتس، والأشجار الضخمة العالية تُحيطِ المعبد والحديقة بسحرٍ خلّاب، وسكونُ الطبيعة أَنساني تَعَبَ الرّوح.

اقتربتُ من البحيرة، وكانت تنعكس عليها ضرباتُ فُرشاةِ السماء البُرتقالية، فقدَ اتشحت باللّونِ البُرتقالي البرَّاق، ولاحظت أن النبع ينسابُ دون أن يُعكِّرَ صفو الماء وصفحة البُحيرة، حاولت مدَّ يدي لأشربَ بعضَه، ارتجّت البحيرة كما لو أني رميتُ فيها جِيفةَ بقرةٍ نافقةٍ، استغربتُ من هذا الثوران...

– هل هي أنفاسي الهائجة؟

أخذتُ نفَسًا عميقًا واقتربتُ بهدوء، فماجت البحيرةُ من جديد كأنها ماء تغلي بغضب، انتابتني موجةُ غَضَبٍ عنيفةٍ وهممت أن أُغطِّسَ رأسي فيها عنوةً، عندما سمعتُ صوتًا من خلفي:

- لا يمكنك أن تأخذ من الحياة إلّا بعد أن تشعر بها...

نظرتُ ورائي... فإذا برجلٍ أصلعَ تلتمِعُ صلعة رأسه تحت صفع الشمس المسائية ببريقٍ لافت، عيناه ناعستان بُنيتان صغيرتان تدلّان على هيئة الغباء، لحيته كثّة قد لوّنها الوخط وشارباه رفيعان أسودان، وضحكته عذبة تترقرق بهدوء بين شفتيه لا تنتمي لتفاصيله الغريبة، يرتدي ثوبه الأصفر الغامق الطويل ليُظهرَ بدورهِ نَحافَةَ جَسدهِ.

اقتربَ من مكاني ومدّ يده إلى البُحيرة وغطسها بالماء فارتفع مَنسوبُ الماءُ بشكلٍ ساحرٍ لينسكبَ في المجرى العلوي من جدارها، أومأ إليّ برأسه أن أشربَ من حافة الجدار، خُيّل إليّ أني سأغبُّ ماء البحيرة كلّها من شدة عطشي، ولكن الغريب أني بعد أن أخذت النهلة الأولى شعرتُ بالارتواء.

قال لي بهدوء:

- اتبعني... فيبدو أن رحلتك كانت مُتعبة...

لم أستطع مُقاوَمتَه... وكأني كنتُ بحاجةٍ لأن يعرف تعبي، دخلتُ إلى ممر المعبد وقبل أن أشاهد البناء المرتفع والأروقة فَتَحَ باب غرفة صغيرة فيها سرير وطاولة عليها شمعة وسجّادة من القش الأصفر المُزركش بالأحمر، وباب منخفض يؤدي إلى حمامٍ صغير أيضًا... قال لي:

– الماء ساخنٌ، استحمَّ ونَلْ قِسطًا من الراحة، عادة العشاء الليلي غير صحية لذلك ستبقى دون طعام لصباح الغد.

عندما قال هذه العبارة شعرتُ أن الجوع قد فَتَكَ بي وأني لن أتحمل جوعي ساعةً إضافيةً، ابتسمَ وأرْدَفَ:

– رغم جوعك هذا فإنه غير قاتل.

وختَمَ كلامه بضحكة هادئة...

ما إن رَسَمَها على وجهه حتى ذَهَبَ إحساسي بالجوع فورًا، وقبل أن يخرج من الغرفة قال لي:

– لا تنسَ أن تُطفِئَ الشَّمعةَ قبل نومِك...

نظرتُ إلى الشمعة، كانت مُشتعلةً، خَرَج وبَقيتُ وذهولي في الغرفة، لأطردَ فكرة أن الشمعة كانت غير مُشتعلة، بتفكيرٍ منطقي أنها كانت مُضاءة ولكن تعبي وإرهاقي منعاني الانتباهَ إليها، نعم هذا تحليلٌ منطقيٌّ صحيح.

بعد خروجي من مغطس الماء الساخن في تلك الغرفة البخارية ارتديت ثوبًا كان على سريري، شعرتُ براحة كبيرة واستلقيتُ على السرير وأنا أَجولُ بنظري سقف الغرفة، وقبيل أن أنغمس في غطاء جفوني شعرتُ أن الظلام يحيق بي، نظرت إلى الشمعة فإذا بها انطفأتْ... نسيتُها... فعلًا قد نسيت أن أُطفئها... ولكن تخاطفتني

أذرع الوسنُ فغرقتُ في بحر النوم العميق دون أن أفكِّرَ بالشمعة نهائيًا.

– لماذا قبلتني في هذا المكان وتركتني أسبوعًا والآن تعطيني زهرة وتخفيها وتقول لي: إن الحقيقة هي وهم؟

– لماذا لم تُحبَّ في مظهري غير ابتسامتي؟

– لأني...

لم أستطعْ الإجابة، فقد شعرتُ بأني أُصبتُ بالخجل من سؤاله...

– لأنك عندما رأيتني كنتَ بحاجة إلى أملٍ من شخصٍ قريبٍ منك، وابتسامتي أعطتك هذا الأمل.

– نعم... ربما..

– لماذا أنكرتَ أن الشمعة كانت غيرَ مُشتعلة... بتفسيراتٍ تعتقدُها منطقية؟ وعندما انطفأتْ من جديد لم تغير رأيك؟

– إذًا كنتَ تعرف حيرتي العقلية؟

– لماذا مكثت أسبوعًا كاملًا وأنت لم تقرر المجيء إلى هنا؟ كنتَ عابر سبيلَ تروم قليلًا من الراحة والماء وما يسدُّ رَمَقَك من الطعام، ولكنك وضعت نفسك تحت تصرفي؟

كان الحكيم يطرح الأسئلة التي صنعت زوبعةً فوضويةً في جُمجمتي، ولكن لم يعطني إجابةً أو فرصةً للإجابة، ورغم هذا كنتُ مُرتاحًا.

تقدَّمَ نحوي بخطوةٍ ووقف بطريقة يدعوني فيها لأتمشى معه في رحاب الحديقة، عندها همس لي:

إن هذا المعبد بما يحويه هو جوهر الحياة ونقطة نظامها، ولكي تكون ضمن هذا النظام المتوازن الأبدي يجب أن تمر من الأبواب.

– الأبواب؟

سألتُه باستغراب وفُضولٍ مُشوَّقٍ:

– نعم الأبواب... وهي رحلة روحية تقوم بها لتتعرف على نفسك لا على الدنيا حولك...

أردتُ الاعتراض، ولكنه لم يُعطِني فُرصةً فأكملَ:

– لديك الوقت الكامل لتخوض هذه التجربة، ستخوض تجربة لم يجربها إلّا قلةٌ من الناس، ولا تسألني: لماذا أنت؟ ربما ستجدُ الجواب عند عَودتِك، نُسمّي هذه الرحلة "أبواب الروح السبعة" ستغيب عن هذا المكان فترةً تُحدِّدُها أنتَ في رِحلتك وعُبورِك الأبواب، وفي كل بابٍ ستعيشُ بطريقةٍ مُختلفةٍ عن غَيرِها، ولكن تذكّر أنّ هذا المعبد هو

الشمعة التي تُنير دَرْبَك وأنت موصول فيه بشكلٍ دائم، ويجب أن تُفرّغ كأسَك الممتلئة...

– نظرت إليه وأنا أتمعَّنُ بتفاصيل وجهه وهو يعطيني فرصة لأفهم كلامه، فعلًا كان وجهه جميلًا، ولم يكن كما اعتقدتُ باديء الأمر...

– ما كأسي الممتلئة؟

– عند حادثة الشمعة في الحالتين رَفَضَ عقلك الأمرَ، وبدأتَ تُبرِّرَ تبريرات مَنطقيةً تُقيِّدُ عقلَك الكونيَ بقُيودٍ ماديَّة، ونسيتَ أنّ الرُّوحَ موجودةٌ قبل المنطق، يجب أن تتقبل الحياةَ، وأنْ تنساب فيها وأن تتعرَّفَ إليها من جديد، يجب أن تعرف الحياة من خلال جوهرك لا من خلال تجاربك مع البشر، ربما تشابَهَتْ بعضُ الوجوه، ولكن هذا لا يدلُّ على أن نيَّاهم متشابهةٌ، وقد تتشابَهُ الكلماتُ في الكتابة لكن المعاني تختلفُ، واللون الأبيض في كفن الميت ليس كاللون الأبيض في ثوب العروس، وليست حرارة الشمس الوهاجة، كحرارة الجَمْرِ الذي يكوي الفؤاد.

قلتُ له وكأنني أفكِّرُ بصوتٍ مرتفع:

– لقد فهمتُ لماذا لم أَتعجَّبْ من النبع الذي رفضت أن أشرب منه، وكيف أنها أعطتك الماء، لأني كنتُ قد أخذتُ فكرة مسبقة أنه نبعٌ مَسحور.

ابتسم الحكيم وربتَ على كتفي... وعرفتُ أني سأبدأ رحلتي قريبًا، وهذا ما ملأني رغبةً وعزمًا لبوابات الرُّوحِ السَّبعِ.

في صباح هذا اليوم، وعند نزوح الظلام وتطاوُلِ أذرع الشمس الحمراء وقبل أن ينهض الطل عن الأوراق النائمة، ستبدأ رحلتي، الليلة المنصرمة لم أعرف طعم النوم، غادرت رأسي جميع الأفكار، وبدا دماغي في فجوة ذاكرة عميقة حتى أني لم أتذكر لماذا أتيت إلى هنا، ولماذا بقيت هنا، ومن أنا، ومن أين أتيتُ... كل ما كنتُ أفكر فيه هو أن أبدأ رحلتي.

سمعتُ خُطًى تقتربُ من الباب، نهضتُ وكنتُ قد ارتديتُ ثوبًا بنيًّا ترابيًّا طويلًا ولففتُ خصري بحزامٍ من القماش العريض، فَتَحَ الباب وقال لي:

- استعدَّ للخُروج...

كان ينتظرني أون الرِّواق، ومعه حقيبة، ناولني إياها وقال لي:

- إن فيها طعام وماء، وأنا أهمُّ في أخذها شدّها إليه ليلفت انتباهي وقال لي:

- ما قُسم لك من الرزق هو لك ولكن لا تعتقد أن ما قُسم لك قد يكون لك فيه نصيب، القسمة شيء والمقسوم شيء آخر.

لم أفهم لماذا أخبرني هذا عندما ناولني الحقيبة، ولكن كنتُ على دراية تامَّة أنه يريد أن يتكلم بأي شيء ليُثيرَ فُضولي، بدأنا نمشي مُتّجهين إلى الغابة خارج حدود المعبد، وكانت الشمس قد أنذرت بقُدومِها بأذرعها الحمراء الشفافة، واتَّشَحَ الفَضاءُ باللَّون الأزرق الفاتِح، ونسمات الفجر النَّديَّةُ تصفع وجهينا ببرودةٍ مُنعشة.

وصلنا إلى الطريق الضيق خلفَ هدير الشلال الضخم العالي، فقد كان يمتدُّ طويلًا من فوق إلى الأسفل لا حَدَّ لبدايتِه، كما أني لا أستطيعُ أن أُشاهِدَ نهايتَه، فقط ذاك الهدير المرتفع الغاضب والرذاذ الضبابي الكثيف.

قال لي:

– إنّ أصل الوجود هو الرُّوح، وهي الجوهر الذي يحمله جسدُنا، فإذا كانت الرُّوحُ نَقيَّةً صافيةً قادت الجسد إلى بوابات المعرفة، أمّا إذا كانت مُنقادةً لمطالب الجسد ضاعت في فوضى الوجود وضَيعتْ الجسدَ معها.

– ما مَطالبُ الجسد؟

– ستتعرفُها في رحلتك هذه، فقد وُجِدت هذه الرحلة لتعود إلى هذا المعبد بعد أن تتعرَّفَ مَطالبَ الجسد وخفايا الروح، ذات تجربة قد فتحت لصاحبها مغاليق الغيب، ورَفعتهُ إلى سمو الوعي المعرفي الروحي، وأخرى غيّبت صاحبها في ظلال الظلام وسخام الجهل،

استخدام القوة الكامنة فينا والتي تُغذيها المعرفة والوعي المعرفي هو النور الذي يُشعُّ أمامنا فنبصِرُ الطريق، إن الطريق موجود قبل الأزل وبعد الأبد، فإذا وصلنا إليه انتمينا إلى النظام المعرفي الكوني في الذات الكاملة.

إن بداية الطريق هي ذبذبات روحك المنسجمة مع التناغمات الكونية كالسُّكَّرِ الذي يذوبُ في كوب ماءٍ، لا تستطيعُ أن تقولَ هذا كوبُ ماءٍ فقط ولا هو سُكَّرٌ فقط... إنما هو كوبٌ حُلوٌ...

إذا أدركتَ: ما العقل؟ وما الرُّوح؟ وكيف تقبعُ النَّفسُ بينهما؟ أيقنتَ حقيقة وُجودِك، فإذا رفعتُ أمامك تمثالًا من الذَّهبِ وقلتُ لك: ما رأيك بمَعْدِنه؟ فلن تستطيع أن تشاهد ما هذا التمثال وما شكله، أمّا إذا قلت لك: ما رأيك بهذا الشكل؟ فلن تَنْتَبِهَ إلى المَعْدِنِ وماهيتِه...

- كيف يُمكنُني أن أعرف بدايةَ الطريق؟

- بالاتصال بنغمة الوجود الكونية.

- وما هذه النغمة؟

- هي اتحاد الأرواح في الوعي الكوني.

- كل الأرواح؟

- كل مَنْ وصل إلى الوعي الكوني وانعتق من كثافة المادة.

– وهل هم أحياء؟

– ما الحياةُ برأيك؟

– الحياة هي الوجود.

– وهل صراصير الأرض حيّة؟

– مَن الأحياءُ إذاً؟

– مَنْ وحَّدُوا أرواحهم في وحدانية الوجود، ومَنْ دَخَلُوا هذا النظام الخالد وعاشوا معه بأرواحِهم وقُلوبِهِم وبِذاتِهم الكُلّيَّةِ.

– ما أول الطريق؟

– نغمةٌ تَصِلُكَ إلى ألحان وترتيباتِ الذات.

– ما هي؟

– أغمضْ عينك، وأمْسِكْ بيدي وحاول السفرَ إلى خارج حدود الوقت وأخبرني: ماذا تسمع؟

بدأتُ أرتفعُ من مكاني وأنا أُخالطُ رُوحَ الحكيم وتناغُمات الذات، وعند ارتقائي خارج مدار المادة سمعتُ أولَ نغمةٍ... متواصلة وعميقة تصدرُ من روحي، وليس من خارج كياني "آووووم"، وهي من وصلتني بتلك الترنيمات التي أحسستُ أنها تصدر من أرواحٍ كثيرة مُتوحِّدةٍ ومتشاركة في نعيمِ الذّاتِ، منتظمة في طريق ونظام

واحد لا يتغير أو يختلّ. عندها عرفتُ: ما رحلتي؟ وكيف سأبدؤها؟ وحاولت أن أبقى هناك لكن كثافتي أرجعتني إلى مكاني، فقال لي:

– لن تبقى في الانعتاق قبل أن تمرَّ في بوابات الروح السبع...

ابتسم وهو يتراجعُ إلى الوراء، وانحنى لي في تحيةٍ لطيفةٍ، ولأول مرة سمعتُ صَوْتَه في رأسي دون أن يُحرِّكَ شفتيه رغم ضَجيجِ الماءِ:

– تذكَّرْ: ما هدف هذه الرحلة؟ ومن أنت؟

الباب الأول

"شُمُوْسُ الحَقِيْقَةِ لا تَرَاهَا كلُّ عَيْنٍ"

شري أتمنندا



بَدَأْتُ أتحركُ بمحاذاة الشَّلال عبر الطريق الضيق الممتدِّ خلفه، وشُعوري بالضِّيقِ راحَ يستعِرُ في قفص صدري لُمفارقتي هذا الرجل الذي جَمَعَ في جوارحه حكمةً ومَحبَّةً بالغتين، شُعوري بأني سأُكمِلُ وحدي سَرَقَ مِنّي بهجةَ الرحلة التي انتابتني صباحًا، ولكني عندما رأيتُ الشلال والطريق عادت إلى أساريري ابتسامةُ الإصرار التي عَهِدَتها في نفسي قبلًا، كان غُبارُ الماءِ المُبعثَرِ في الأجواء ثَقيلًا وباردًا رغم خُروج البخار منه، وعلاوةً على صوته المزعج الصاخب، راحت الرُّطوبة تستقرُّ على جسدي، وشعرتُ بقطرات من الماء تسيلُ فوق وجهي، وعندما تجاوزتُه وجدتُ أن الطريقَ الضَّيِّقَ قد انتهى ولا سبيل لأُكْمِلَ طريقي، ورحتُ أفكِّرُ بأن هناك طريقًا آخر قد ينحدر إلى الأسفل، وقفتُ لأتمعَّنَ بمنظره؛ ولأنظر إلى نهايته، توقَّعتُ أن أرى نهرًا أو بُحيرة تنتهي عندها صفعات ماء الشلال الساقطة من فوق، ولكن لم أُصدِّقْ ما رأيتُ بعيني، لقد كانت رؤوس أشجار لغابةٍ كثيفةٍ يتساقَطُ عليها الشلالُ كأنه أوراق أشجار يابسة، اعتقدتُ أن في

الأمر لغزًا، ولكن بعد بضع ثوانٍ تذكّرتُ الزهرة في يد الحكيم وتذكرت ما قاله لي: "إن الحقيقة هي الوعي المعرفي داخلنا، فإذا أدركتَ هذه الحقيقة، أدركتَ قانون ما حولك ماديًّا وملموسًا، فهو جزء من أجزاءٍ كثيرةٍ، وحقيقتُنا المعرفية أقوى من الحقيقة المرئية".

تفكّرت قليلًا في حقيقة الشلال والطريق، تمالكتُ أعصابي وركّزتُ أفكاري في أن الصورة المادية أمامي هي نتيجة لفكري المادي، وأن قوة المعرفة داخلي قديرةٌ على تحريك حقيقة الموجود ضمن حُدودٍ ومَسْلَكٍ صحيحٍ لا لَبْسَ فيه، عندما اقتحمتْ هذه الفكرةُ رأسي انتابتني مَوجةٌ من الغبطة، نظرتُ إلى أسفل الشلال فإذا به يَنْسَكِبُ في بُحيرةٍ كبيرةٍ تنتهي إلى نَهْرٍ عملاقٍ، ويرسُمُ قَوْسَ قُزَحَ بانعكاس ضوء الشمس على رذاذ الماء المُتطاير في الهواء.

– نعم هذه هي الحقيقة... فقط الحقيقة...

نظرتُ إلى الطريق فوجدْتُهُ كما لو أنه بدا أعرض وأوضح من ذي قبل، مشيتُ عليه، ودخلتُ ضمن كثافة أجمة أشجار مُعتمة منعتني من رؤية الضوء المتساقط من بين كثيف أغصانها، مشيتُ إلى الأمام يخالطني شعور أني سأُفضي إلى آخرها، وأنا مُغْمِضٌ جفوني لأَقِيَ عينيَّ من أي عصا أو عود في هذا المكان الضيق.

وجدتُ نفسي بين سُهولٍ خضراءَ شاسعةً، وفيها هذا الدَّرْبُ الممتدُّ بينها، وكأنه شريان الحياة فيها، صوت زقزقة الطيور وحركة

الأعشاب وتصفيق النسيم على صيوان أذنيَّ، لم أَنْظُرْ خلفي أو أستغربْ أنَّ الشلال والجبال والتضاريس قد تغيرت – لعلي كنتُ أريدُ البقاءَ في هذا المكان لأسيرَ في الطريق دون عوائق – رحتُ أمشي في هذا الطريق بين الحُقول المُترامية حولي، لا أعرفُ وجهتي، لكن الطَّقْسَ لطيفٌ، وقدميَّ قادرَتانِ على حملي مسافاتٍ طويلة.

وجدتُ كلبًا يستلقي على قارعة الطريق في مكان بين أعشابه القصيرة، اعتقدتُ أنه ميتٌ، ولكن باقترابي منه عرفتُ أنه أنثى تُرضع جراءها، بدا عليها الجوع... أو أني شعرتُ بحاجتها للطعام، أنزلتُ حقيبتي الثقيلة لأعطيها قليلًا مِن الطعام، مَدَدْتُ يدي وتناولتُ قطعةً جبنة صفراء مصنوعة يدويًّا تلتمع بطراوةٍ بطيئة ورائحتُها المُختلطةُ بالعُفونة أغرتني بأن أشعر بالجوع أيضًا، وجَعلتْ فمي يفيض لعابًا، وخُيّل لي كأنني سألتهمها كلها، وضعتها أمام الكلبة التي بدأت تلوكها بسرعةٍ ونهمٍ، ابتعدت عنها مسافةً ليست قليلة، وتَعرُّجُ الدَّرْبُ وانحناؤه جعل الحيوان يغيب عن نظري، جلستُ وقد فعل بي الجوع ما فَعَلَ، فمَدَدْتُ يدي إلى الحقيبة لأتناولَ قطعةَ جبنٍ شهيةً أخرى لأسُدَّ رغبتي وجوعي الصباحي، مددتُ يدي وجُلْتُ في أنحاء الحقيبة، فلم أتلمس سوى قارورة الماء فقط، اشتعلتْ في رقبتي نيران غضب حانقٍ، لم أتوقع أن يضع الحكيم قطعةَ جُبنٍ واحدةً، سكتُّ قليلًا، ثم نهضْتُ من مكاني، ولم أستطع إلّا أن أُلقي بالحقيبة بعيدًا عني، وبدأتُ أصرخُ بغضبٍ وأنا أرشُقُ ذاك الرجل بكلمات بذيئة... ولكن هذا الكلام لم يُشفِ غليلي، فركلتُ الحقيبة بعيدًا إلى هناك، وبدأت

أنفاسي تلتهبُ في صدري فجفَّ فمي وحنجرتي، ذهبتُ إلى الحقيبة الملعونة لآخُذَ منها قارورةَ ماءِ النَّبعِ؛ علّها تُغني عن الجوع، فتحتُها وإذ بها مُبلّلةً وتفوح منها رائحة ماء جوفي مُنعشةً.

نعم كَسرتُ القارورة بركلتي الطائشة... في هذه اللحظات هدأتْ مَوجةُ غَضَبي وتلاشت رويدًا رويدًا، وأدركتُ أني أخطأتُ بثورتي...

كان قبولي للرحلة هو اختياري

كان تقديمي الطعام للكلب هو اختياري

كان كسري القارورة هو اختياري

ونتيجة هذه الاختيارات وقوفي عاجزًا أمام عطشي وجوعي، وابتسمتُ حين تذكرتُ قولَ الحكيم عندما أعطاني الحقيبة "ما قُسم لك من الرزق هو لك، ولكن لا تعتقد أن ما قُسم لك قد يكون لك فيه نصيب، القسمة شيء والمقسوم شيء آخر"، جلستُ بجانب الطريق عند الحجر الكبير لأُلقيَ خيبة أملي عليه، وبدأتْ أنيابُ تأنيب الضمير تنهشُ صدري لأني نلتُ من الحكيم بكلمات نابية، في جلستي هذه شعرتُ أن قوتي قد خارت، وأني لا أستطيعُ المشيَ، انتظرتُ لأن أرتاح وأتناسى جوعي وعطشي.

اقتربَ مني خيالُ رجلٍ يمشي ببطءٍ ومعه عصا وقد رَفَعَ وَجْهَه للأعلى، شعرتُ بالتفاؤل، فلا بُدَّ أن هناك سكنًا أو بُيوتًا لوجود هذا

الشخص هنا، كانت مِشيتَه بطيئةً لدرجة مُملّةٍ، وبدأتُ أشعرُ بالضّيق وانهالُ الغمْرُ في صدري فوق متونه، ولكن باقترابه شعرتُ بخجلٍ وحزن خيّم فوقي، لقد كان الرجل أعمى، وكانت مِشيتُه البطيئة لأنه يستدلُّ على الطريق بعصاه، قررتُ عدم التحرك ليتجاوزني، فَقَدْ ذهبتْ رغبتي في أن أطلبَ إليهِ شيئًا، ولكن صدمني عندما أصبحَ بمُحاذاتي، وَقَفَ والتفتَ إليّ وهو يبتسمُ ويقول:

- أغريبٌ أنتَ عن هذه الأرض؟

تيبّست شفتي... ولعقتُها بلساني وبعد جهدٍ قلتُ:

- نعم.

واصَلَ ابتسامتَه واقتربَ مني، وجلس على الحجر بجانبي وقال:

- حسنًا، تعالَ معي إلى البلدة؛ فأعطيك قليلًا من الطعام والماء، فيبدو عليك الجوعُ والعَطَشُ، لا تقلقْ ربما وجودي هنا هوَ نَجْدَةٌ لك...

قالها بنوعٍ مِن الدُّعابة، ولكن استغربت لمعرفته بحالي، وسألته سؤالًا مُبطّنًا لأعرف كيف استطاع رؤيتي:

- كيف استطعتَ أن تمضي هذا العمر وأنتَ أعمى؟

- ومَنْ قال لكَ إني أعمى؟ هل تعتقدُ أن فِقدان البصر هو عمى؟

لم أجد جوابًا لكلامه، ولكني دُهشْتُ من معرفتي أنه عاش عمره أعمى، وكأن الأمر مألوفٌ لديَّ، نظرتُ إليه وأنا أُفكِّرُ بهذا الشخص الذي يبدو عليه أنه وسيمٌ، وثقَتُه بنفسه لامعةٌ مُتوهجةٌ، أردتُ أن أعرف ذاته المعرفية بعُمقٍ؛ لذلك قررتُ أن أبقى معه فترةً طويلةً.

- أنا جاهزٌ لأن أذْهَبَ معك...

قلتُ هذهِ الكلماتِ وقد فارقني الضِّيقُ الذي كان يُحيطني، فقد أخطأتُ مرتين، مرةً عندما غَضبتُ من الحكيم، والمرة الثانية عندما غَضبتُ من هذا الأعمى، فعلًا إن صفات الظلام في جسدي لم تزل تعملُ، يجب أن أعيش مع هذا الأعمى مُدَّةً مُعينةً لأنطلق إلى مرحلة تالية أتخلَّصُ فيها من غضبي، فلن تنجح هذه الرحلة دون أن أتحلّى بالحلم والسكون.

نَهَضَ الأعمى ومدَّ يده لأمسكها، ومضى، وقال لي:

- اتْرُك الحقيبةَ، فلم تعد بحاجة إليها، ستحتاجُ إلى أشياء أخرى لا تستطيع أن تمسكها بيدك، ولكن تستطيع أن تحتفظَ فيها برُوحِك وحقيبتك الدَّاخلية...

أمسكتُ يده... وبدأت...

***

رَفعتُ رأسي، وبدأتُ أتلمَّسُ طريقي بالعصا أمامي، شعرتُ بهبوب الرِّياح الخفيفة، فأدركتُ أن المساء أوشك أن يأتي، فأسرعتُ في خطواتي لا لأن المساء قد يطرد نور النهار، فلا فَرْقَ عندي بين نور النهار وحالك العَتَمة في الليل، وإنما لأعبر المنطقة التي كان يخاف عبورها كل أهل البلدة إلّايَ... المساحة الممتدة على حدود البلدة الغربية والتي تناسى الناس النظر إليها، أو تجاهلها الكثيرون، لماذا لا أشعر بنفس الرهبة منها؟ هل لأني أعمى ولا أراها؟ لا أعتقد...

اقتربتُ من الطريق النازل تدريجيًّا، وسَرَتْ بي رَعشةٌ دَفينةٌ فعرفتُ أني أصبحتُ بمُحاذاة مملكة الصَّمتِ هذه، نعم، المقابر هي مملكة الصمت، لا أحَدَ يستطيعُ رَفْعَ صوته فيها، لا لخوفهم من إزعاج سكّانها، ولكن لغياب الثقة بالنفس لديهم، فهناك مَنْ هم أموات منذ أزمنة انقضتْ، لّما تزل جثثهم تجوس بيننا، ولم تُدفن بعد... تأكل وتشرب معنا تتكلم وتعيش يومها... ولا تعرف القمة من السَّفحِ، وهم فعلًا جثثٌ تُركت دون دفنٍ، إذا تحركت فاحت رائحتُها، وبكل حركة منها تزدادُ الرائحة نتانةً، فالجثةُ المدفونة أفضلُ منها، والرائحةُ النَّتنةُ التي أعني ليست لحمها المتعفّن، بل هناك روائحُ أكثر قذارةً وأشدّ سُمًّا من الجُثث، تلك هي روائح الفم... نعم رائحة الكلام البذيء، فلا أعتقدُ أن لها علاجًا.

عند اقترابي من صَخَبِ ورائحة البيوت شعرتُ بشيءٍ من الارتياح، فخففتُ مشيتي لأصلَ إلى قارعة الطريق المؤدية إلى ساحة البلدة، لقد كانت مكتظَّةً بالناس، فاليوم هو عيد الربيع، حيث يجتمعُ أهلُ بلدتنا لأكل اللحوم المُقدَّدة والفواكه وشُربِ النبيذ المُعتَّقِ القديم، فهذه الليلة من أبغض الأوقات عليَّ؛ لأن أهل البلدة سيشربون حدَّ الثُّمالة، وسأكون أنا البصير الوحيد بينهم، صحيح أني لا أرى بعيني العقيمتين هاتين، ولكني أرى بذاك البَريق اللامع داخلي، إني أشعر به كأنه سرابٌ في الصحراء دائمًا أمامي يدلُّني على الطريق الذي أرومُ، وإذا تجاوز أحدٌ حُدودَ هذا السَّرابَ انكشفَ لي وكأني أراه وأسمعه جيدًا، لا بُدَّ أني سأكون مسؤولًا عن الناس اليوم، وأن أكون مسؤولًا عن مجموعة من العميان، إنه لأمرٌ في غاية العَناء.

وأنا أسيرُ في الطريق سمعتُ خُطواتٍ قريبةً تتعقَّبُني، وشعرتُ بذاك العطْرِ السَّاحِرِ الذي أطْبَقَ حولي، أكملتُ طريقي بسرعة، فأسرعت الخُطوات خلفي، توقّفْتُ وقلتُ لها:

– لماذا تتبعينني؟ هل هناك مَنْ يلحقُ بِكِ اليوم أيضًا؟

اقتربتْ وأمسكتْ يديَّ وقالت:

– لا... ولكن أريد أن أمشي معك قليلًا...

قبل أيام خلت تَقدمتْ إليَّ تلك الفتاة وهي تلهثُ، وقد بدا عليها الارتباك، أمسكتْ يدي وقالت لي أن أستمر في المشي؛ لأن هناك مَنْ

يُلاحقُها، لقد كانت تعمل في مصنع للحلوى، وعند انتهائها من العمل أخذت قليلًا من الخبز الطازج وخرجت إلى الطريق لتذهب إلى بيتها، واحد من المتنفذين في البلدة حاول أن يوقفها ليُحدِّثها، وعندما اقترب منها سألها:

– هل ترغبينَ ببعضِ المَرَحِ يا حُلوة؟

– أنا ذاهبةٌ إلى البيتِ فقد تأخَّرَ الوقت.

– لا تقلقي سأوصِّلُك إلى البيت عندما ننتهي من مَرَحِنا.

نظرتْ إليه وهي تشعرُ بالخوف، وعندما لامس عنقها وكتفها بعصا الخيل التي كانت معه، شعرت بالخجل وبدا عليه الارتباك واصطبغت وجنتاها باللون الأحمر، اعتقدَ أنه أوقعها في الفخ، ولكنه لم يعرف أنه خجلها؛ لأنها رأتني أمشي بمحاذاتهم، تركته واقتربت مني وهي تركضُ بلهفةٍ لتمسك يدي، وعندما رآها قد وصلت إليّ اعتقد أني قريبها أو زوجها فامتطى جواده الذي راح يُقَرْقِعُ بحوافره على الطريق المرصوف.

كانت تُراقِبُني كل يوم وأنا أمرُّ من هنا، وكانت تتلهف لرؤيتي، لم أكن أعرف ما الذي يجذب صبية شابة تضجُّ بها الحياة إلى رجل أعمى مثلي، ولكن لا بدّ أن خيالها في أن تكون لشخص لا يطمع بجمال جسدها، بل يصبو إلى رفعة رُوحِها دَفَعَها للتعلُّقِ بي، فبكل الأحوال لن أستطيعَ التفكير بجسدها أبدًا فإني لا أطمع بما لا أراه، وأنا لا أرى

شيئًا بعيني لذلك لا أطمع بشيء، كنتُ دائمًا أرى نفسي غريبًا عن هذا الوجود، ضيفًا ثقيلًا على الناس، يهربون من التعاطي معي، لا لأنهم لا يحبون مساعدة العاجز لا... ولكن للهروب من واقع العجز ذاته، فأنا صورة من صور عَجْزِهم وضَعْفِهم...

لم أعرف أني كوني أعمى قد كنتُ درعًا يحميها، استمرَرْتُ في المشي، وعند نهاية الطريق شكرتني وقبلتني على خدي ومضت.

ها قد عادتْ... لقد أمسكت يدي ولكني لم أشعر أنها مُرتبكةً وخائفة من أحد، فإن تعرّق أصابعها وصوت دقات قلبها الملتهبة وأنفاسها الهائجة جعلتني أفكرُ بالشيء الذي جال برأسي مذ يومين، لقد اقتربت مني قبل يومين لتسير بجانبي، ويبدو أن حالة الخوف فيها منعتها مُلاحظةَ التصاق جَسدِها بجسدي وأن نهدها الصلب قد استوطن ذراعي، وراحت رائحة شعرها الممزوج بعرقِها تتطايَرُ إلى وجهي، عندها شعرتُ بأن نارًا قد تعربشت على صدري، وقبل أن أميّز هذا الشعور كانت قد شكرتني بقبلة على خدي وذهبت، اليوم عادت ويبدو أن النار التي شعرت بها قد أعادتها إليَّ، لم أستطع النوم طيلة الليل وأنا أجوب بأفكاري بين رائحة عِطرها وتعرُّق يدها وملمس صدرها الساخن، أحاول الابتعاد عن جسدها فلا أقدر، رغم أني لم أَرَهُ قط.

خرجتُ هذا الصباح حيث كان الصقيع ينام على الطُّرقات، حاولتُ أنِ أشعرَ ببرودة الجو الواخزة، علّ ناري تهدأ وتعود إلى ما كانت عليه قبل اضطرامها، عندما شعرت بهدوء روحي عدتُ إلى القرية.

لقد مشينا إلى مكان بين الأبنية القديمة العالية، وأدركتُ أننا وحدنا، اقتربتْ ولاصقت صدرها على صدري ولكني شعرتُ بطراوتِه، أمسكتْ كلتا يدي ووضعتهما عليه، فإذا به عارٍ تمامًا، صَعدتْ النار من أسفل بطني إلى صدري وبدأت تَخْفقُ في رئتي أنفاسٌ مُرتبكةٌ، قالت لي بلهفة:

– إني رأيتُ فيك الرَّجُلَ الذي شعرتُ معه بأنوثتي، فتعالَ وانَهْلْ من هذه الأنوثة.

– ولكني لم أحاول حتى أن أتحدث إليكِ فيما سبق... فلماذا أنا؟

– لأنك الوحيدُ الذي لم يحاول استغلال هذا الجسدِ، والوحيدُ الذي كان يعاملُني باحترامٍ رغم أني فقيرةٌ، فقد كنتَ ترمي عليَّ السلام إذا شعرتَ بوجوادي، وكنتُ أُدْرِكُ أنك ترى روحي لا صدري الكبير أو خصري الناحل أو أردافي المثيرة.

– أنا لا أرى...

- بل... أنت ترى... لقد رأيتُ رُوحي التي تعلّقت بك في كل لحظة... ليلة الأمس لم أستطع النوم وأنا أشعر بأن جسدي يتمرغ فوق أفكارك، وأنك تشتهي رحيقي البِكْرَ...

قالت هذه العبارة بثقة، فعرفت أنها كشفت ما كنتُ أُريدُه فعلًا، وأن انتقال هذه الفكرة إليها جاوزَ الحدود والمكان، لم أستطع الهُروبَ منها أو الابتعاد عن هالتها الجسدية، فقد شعرتُ أن الهالة الجسدية أحيانًا قد يكون لها تأثير الهالة المعرفية اللّطيفة.

اقتربتْ لتضع شفتيها على شفتي فشعرت أن رغبتي في ضَمِّها طفقت تزداد سعيرًا، سمعتُها تطلق صوتَ تنهيدةٍ من أعماقها، ولكن خرجت من فمِها لا من صدرِها كما كنتُ أسمع الناس، شعرتُ برغبةٍ جارفةٍ تتسلل من جسدِها إلى جسدي، وهنا كانت الصدمة... عندما شعرتُ بجسدها الساخن لم أعد أرى ذاك البريق السَّرابيَّ، أدركتُ أني أعمى لا أرى الطريق والعصا... حتى الفتاة لم أعد أراها، تراجعتُ عنها إلى الوراء، وسقطتُ على الأرض وأنا أقول بصوت عالٍ:

- لا... لا...

أَعتقدُ أنها هربت؛ لأني لم أعد أَرَها أو أشتمَّ رائحتها، فقد خافت من اجتماع الناس على صوت صراخي أو أنها خرجت من قيود الجسد إلى وعي الرُّوح، وكل ما كنتُ أُريدُه هو عصاي لأستطيع النهوض والمشي، شعرت أن النور انطفأ من حولي، وأن الضجيج

أصبح يزيد عَتَمة المكان، طيلة عمري كنتُ أتحرَّكُ ولا أخافُ السُّقوطَ، فقط الآن سقطتُ على الأرض... بدأتُ أتلمَّسُ الأرض لأستقرَّ في مكانٍ أستعيدُ فيه بصري، أسْنَدْتُ ظهري إلى حائط هناك، وبدأتُ أُقلِّبُ الأحداثَ في رأسي، وعرفتُ أنه خَطئي أنا...

أنا من أوحى للفتاة أني شعرت بأنوثتها، وأنا مَنْ جعلها تُفكِّرُ في جسدي، لأني سيطرتُ على عقلها المادي بعقلي المعرفي، وكنتُ أتمنى أن تعود...

عرفتُ لماذا كانت هناك قطعة جبن واحدة في الحقيبة؟ ولماذا شعرتُ بالجوع والعطش فجأة؟ ولماذا لم أكن أشعر بالعمى قبلًا؟ عندما كنتُ أفكر بلحظات من الصفاء الروحي كانت احتياجاتي للطعام والماء بعيدة عني رغم وجودها وعندما أعجبتني قطعة الجبن أخمدتُ نور المعرفة لأُظهرَ كباء اللون في الجسد المادي، وعندما كنتُ أعيش لأرى بروحي كنتُ أبصرَ من كل الناس حولي، ولكن عندما تحركت غرائزي انطفأ نوري الداخلي، فالتفكير الذي يدور في وعينا المعرفي هو الحقيقة التي تعكسُ صورتَها على الحياة المادية حولنا، عدتُ لأفكِّرَ في العصا فقد شعرتُ بالضِّيق لفقدانها... بدأت أشعر بالبرد ينتابُني... ليس البرد حولي ولكن رعشة برد نبعت من داخلي العميق، فعرفتُ أني لم أعد أملكُ أي شيءٍ من نارِ المعرفة، لففت يدي حول رجليَّ اللتين كانتا قد انطوتا على صدري، وجلستُ لأجولَ بتاريخ ذاكرتي

عبر هذه المدة التي عِشتُها دون عصا؛ علني أجد ما أرتكزُ فيه للنهوض من عَتَمتي هذه بعد انطفاء بريقي الذي لازمني عمري هذا...

تراكضتِ الأقدام سريعًا إلى الأزِقَّة القديمة، ورحتُ أتقدَّمُ من تلك الجلبة، وإذ بهم يجتمعون حول جثة الأعمى الذي كان يتكئ على أحد الجُدران في أحد الأزقة المخفية وعصاه مرمية بجانبه، نظرتُ إلى الوجوه، فوجدتُ فتاةً ترتدي ثوبًا خفيفًا، وكانت ترتجفُ وتبكي بصمتٍ، ودموعها تنهمرُ على وجهِها، عرفتُها وحاولت أن أتجنَّبَها؛ لكيلا تعرفني هي إذا اقتربتُ منها، آخر ما كان في رأسي تلك القصة التي كانت تدوّي في خَلَدِ الأعمى بآخر لحظاته:

كان هناك رجلٌ ناسكٌ يعمل في دكان لتصليح الأحذية القديمة، وكانت ترى عينه سيقان الناس وأقدامهم كل يومٍ، لم يكن يكترث لهذه الأقدام والسَّيقان مهما يبلُغْ فيها من عري، دخل إليه صديقه الناسكُ وقال له:

– إني ذاهب إلى أعالي الجبال لأتعبّد وأجوب بروحي عبر الذات الخالدة، فإن عملك هذا يمنعك الانعتاق.

غاب هذا الناسك عشرين سنةً، وعندما دخل على صديقه الذي كان في نفس مكانه وعمله، وضع أمامه سَلَّةً مِنَ القش تحمل ماءً وخاطبه:

– هذا ما وصلتُ إليه من التَّنسُّكِ والتعبُّدِ في ذاك الجبل وحدي.

فقال له صانع الأحذية بعد أن نظر إليهِ نظرة زُهْدٍ عابرةً:

– انتظرني في الدكان ريثما أعود وأجلس مكاني قليلًا.

جَلَسَ النَّاسكُ مكانه وهو فخور بتلك السلة المليئة بالماء، دخلت إلى الدكان فتاةٌ جميلة سبقتها خفقاتُ عِطرِها أمامها، نظرت إلى النَّاسِك وقالت له:

– أريدُ منكَ أن تُصْلِحَ حذائي هذا...

ورفعت ثوبها... فإذ بساقٍ شمعيةٍ تلتمعُ وقد لوَّنَها البياضُ، قد انكشفت لفوق ركبتها، نظر الناسك إليها ولم يستطع إزاحة نظره عنها، وراحَ ماء السلة ينسكبُ رويدًا ويدًا على أرضِ الدُّكان.

خَرجتُ من ساحة القرية لأُكْمِلَ طَريقي خارجَها، وأنا مُحاطٌ بفكرة لم تفارقني وقتًا طويلًا:

إن الروح جوهر صافٍ، إذا صقلتهُ بالمعرفة ومواد الروح سَمَتْ وارتفعتْ في طريق شُموس الحقيقة. أما إذا أغرقتَها في وَحْلِ الجسد خَبَتْ شُعلتُها وابتعدت عن الطريق...



الباب الثاني

"التَعَلُّمُ دُوْنَ تَفكِيْرٍ جُهْدٌ ضَائِعٌ، وَالتَّفْكِيرُ دُوْنَ تَعَلّمٍ أَمرٌ خَطْيرٌ".

كونفوشيوس



بَعد تجاوُزي البلدةَ تلك مُتجاوزًا معها غُصّتي على ذاك الأعمي الذي فَقَدَ حياتَه نتيجة تفشي الرَّغبة الجسدية فيه، فقد لَفَظتهُ الحقيقة المعرفية عندما خالَفَ قانونها الذي عاش معه كامل عمره المُنصرم، رُحتُ أمضي في المسير إلى الغابة التي تعترض طريقَ الدَّرْب، وكانت السماءُ قد بدأت بفرش نِقابِها المُزَرْكَشِ بالألماس المُكسر فوقها، تقدمتُ وقد بدا أن الجو سينقلب إلى ريحٍ وثلوج باردة؛ لأن حرارته المنخفضة أوحت إليّ بذلك، خضتُ طريقي إلى الغابة، ولم أَخَفْ عُبورها، أو لم أُحِسَّ بالرَّهبةِ من الدخول فيها، بدأتُ أرى أعقاب الأشجار الضخمة حولي، ونور القمر المُشع يرسُم خيوطًا في هواء الغابة الرطب الكثيف، تقدمتُ في السَّيرِ، وبدأ البرد ينالُ مني، وشعرتُ إني أخطأتُ باقتحامي هذه الغابة ليلًا، كان عليَّ الانتظار في القرية حتى الصباح على الأقل، راحت أفكاري تُغالِبُني بالعودة، وتوقفتُ أكثر من مرة وأنا أنظر إلى الخلف لأرى الطريق بين الأشجار وقد غطّاهُ اللّيلُ، شعرتُ أن أصابع قدمي قد تيبَّستْ وبدأ الصَّقيعُ

يأخُذُ منها الإحساسَ، لم تكن تؤلمني بقدر ما كانت تضيّق عليَّ في المشي، كنتُ أشعرُ بأزيزها بكل خطوة، أزيز يصل إلى رأسي عبر أعظمي، توقفتُ للمرة الأخيرة وقررتُ:

هل أعود؟ ولكن إلى أين؟

لن أعودَ، سأُتابِعُ مسيري، فربما وجدتُ شيئًا يغيّر وضعي هذا، عندما فكرتُ بهذه الطريقة شعرتُ أني ارتحتُ قليلًا، وأكملت مسيرتي، ولكن في الطريق تساءلت: لماذا لم أشعر بالألم بعد؟ هل هذه الرحلة تفتقرُ إلى الألم؟

في شُرودي هذا ارتطمت قدمي بجذعٍ مكسورٍ بين الأعشاب، وشعرتُ أنه مزّق جلدي، برودة مزعجة انتابتني وكدتُ أن أصرخ لولا أني تمالكتُ موجةَ غضبي وتذكرتُ أن رياح الغضب قد تُطفئُ سِراجَ العقل حتمًا، فلا داعي لثورة أعصابي فقد حَدَثَ ما حدث، ارتطمت رجلي وانقضى الأمر، ربما منذ ثوانٍ معدودات، ولكن هذا انقضى وأصبحت تلك الثواني بعيدة بعدًا سحيقًا عني، فإن قانون الوجود يقول: إن مَئةَ سنةٍ قادمة أقربُ من دقيقةٍ مَضَتْ.

لَمَحْتُ في البعيد نورًا يرسل أعمدته باتجاهي، أمعنتُ النظر فإذا به كوخٌ صغير بين أشجار الغابة، قد نَفَثت مدخنته غيمةً من الدخان الأسود المتواصِلِ فعرفتُ أنه مسكون بأحد، رفعتُ قدمي ومشيتُ إلى ذاك الكوخ علّني أجد مُبتغاي عِندَه.

تقدمتُ إلى الكوخ بحذرٍ، وحاولتُ أن أستطلعَ المكانَ دون لفت الانتباه، فإذا كان هناك ما يُريبُ انسحبتُ فورًا وبهدوء، مجموعة من الأخشاب المُقطّعة المرفوعة جانبًا، والزجاجُ المُجعَّدُ يرسل نورًا كهلًا إلى الخارج، اقتربتُ من الباب وبمجرد مُلامستي له انفتح على مصراعيه.

- مرحبًا بالضيف... صوت خرج من بطن المكان...

امرأةٌ عجوزٌ تثاقلت فوق مُتُونِها السنون، تهدَّجَ صَوتُها بدفءٍ جميلٍ، وَضعتْ على كتفيها وشاحًا من صوف النباتات، وجلستْ على كرسيها الهزّاز أمام النار التي كانت تتعربش بذراعيها على وعاء الحَساء المُعلّق فوقها، وبدأتْ في الخارج الرِّياحُ تشخرُ بين الأشجار العالية لتنذر بعاصفةٍ قد أقبلت على الغابة، فلعلّها تقول لي: إني محظوظ بهذا الكوخ الدافئ، تَقَدّمْتُ منها مخاطبًا:

- هل أجدُ عندَك مكانًا لأستريحَ فيه هذه الليلة؟

- طبعًا على الرحب دائمًا فأنا أنتظرُ طُلّابَ الحِكمة لأن يمروا من هنا كل فترة، هاك الكرسي، اجلسْ واستمتعْ بالنار الدافئة ريثما تطرد البرد عن أطرافك، يا لك من مُتعَبٍ مِسكينٍ!

نظرتُ إليها فإذا بها عجوزٌ عمياء... ثم أردَفتْ:

- هل رِجْلُك مُصابةٌ؟

ابتسمتْ ولم أشعرْ بالاستغراب إذ إني عرفت أنها ترى بذاك السَّراب اللامع، فَقَدْ خَبِرْتُه قبلًا..

– لا بأسَ، ستكونُ بخيرٍ...

بعد أن مرَّ الوقتُ بهدوءٍ وكان النعاس قد تغلّبَ على تلك العجوز، قمتُ لأُغطيَها بوشاحِها الذي وقع عن كتفيها، لعلّها ترتاحُ الليلة وقد وَجدتْ من يؤانسها، لو أني لم أعرف ذاك السَّرابَ اللامع لاستغربتُ: كيف تعيش هنا وحيدة؟ وكيف تقضي يومها وتقوم بحوائجها؟ وقفتُ لأبحث عن العصا فلم أجدْها، ولكني وجدتُ مجموعة من الكتب فوق الرّف الخشبي، مددْتُ يدي إلى أحدِ الكتب المُلقى جانبًا كأن شخصًا ما قد كان قرأ منه بعض الصفحات، فتحتُه فوجدتُ القصَّةَ التي لم أعرفها يومًا، ولم أسمع عنها قط، صورة رجلٍ يُدحرج صخرة كبيرة جدًّا من أسفل السفح، وبدا أن جسده الأسطوري قُدَّ من الصخر أيضًا...

– إنه سيزيف...

– سيزيف؟

– نعم يا له من مسكينٍ! عندما قاده طموحه أن يكون إلهًا عُوقِبَ، ولكنه لم يتراجَعْ عن موقفِه رغم غضب الآلهة، يعلم المرءُ حين يُجربُ تجربةً شخصية، ويتعلَّمُ حين يُعلِّمُ الآخرين من تجربتِه..

- ولماذا عُوقِبَ؟

- لأن الطموح إذا تسلّح بالحقد والمُراوغة والغضب قد يصبح وبالًا على صاحبِه، ربما استطاع أن يَصِلَ، ولكن لا راحة مع ذاك الطموح المُلوَّث.

- ولكن اعتقادي بأن التجربة قد تُصْقِلُ الخبرة وتُنشِّطُ العقلَ في كل تفاصيلِها، ألم يتعلمْ من تجربتِه؟

- يستفيد العقل إذا كان صافيًا يمتلك المحبة في جوهره، أما ما عدا ذلك فهو كالطَّبل الأجوف لا شيء فيه سوى الصدى والخواء.

أخذتُ الكتابَ وتقدمتُ إلى العجوز وأنا أفكر فيه، ما الذي فعله ليحمل هذه الصخرة؟

فقالت لي العجوز:

- اجلس هنا بقُربِيَ واقرأ قِصَّتَه؛ علّك تعرف بعض الإجابات التي لا تنفكُّ تُلِحُّ عليك... وعندما تنتهي من رحلتِك معه ستُدْرِكُ حقيقةَ الطُّموح وأشراطَه.

***

في أول فصل الربيع، وعندما كانت الأرض تنفضُ البرودة عنها، وكان البارص قد أنذر بقدومه، وقفت حائرًا أنتظر عند حافة النهر المقدس وأنا أتقلّبُ على جمرٍ من القلق، إذ أخذتني أفكاري إلى معبد

الأوليمب ذاك، حيث الحياة الرغيدة والسلطة والقوة والخلود، لا خوف من انقضاء الأجل أو من الشيخوخة، سأكونُ بهذه الهيئة القوية دائمًا، ورحتُ أتمعنُ في انعكاس خيالي على وجه ماء البحيرة وأنا أقوم بحركات استعراض لعضلات جسدي.

لا بُدَّ أن يأتيَ، لقد عَلِمَ بأني أطلبُه، يجب أن يعرف ما الذي فعله زيوس، نعم يعتقد أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، أن يغوي من يشاء، ولكني سأكشف ألاعيبه، ربما في هذه اللحظة يقبل أن يرفعني إلى ما أصبو إليه، لديَّ الذكاء والقُدرة على فهم الآلهة عنوة عن البشر، وقد استطعتُ أن أخدع العالم غير مرةٍ، الضيوف الذين أتوا إلى قصري من الأنحاء كافةً أمنوا أنهم بخير، ورغم هذا خدعتُهم وفتكتُ بهم، وهذا الذكاء يرقّيني لأن أكون إلهًا... نعم إلهًا كأنظاري من الآلهة... قد يكون طموحي كبيرًا ولكن إذا لم تكن الطموحات كبيرة فلن نستطيع تحقيقَها، فكلما كَبُرَ الحلم كانت حقيقة تحقيقه أقرب، إن الذين يعيشون على وجه الأرض كأنهم ديدان يقبلون القدر وحتميته ولا يفعلون شيئًا حياله، إنما هم لم يفهموا حقيقة القَدَرِ وجريانَه، الذي يرسُم طريقًا له في مجرى القدر يحصل على ما يريد لأن القدر نفسَه يُعطِيَهُ ما يستحقُّ.

ارتجفَ ماءُ البُحيرةِ، وهبّت ريحٌ عاتيةٌ اقتلعت الشُّجيرات الصُغيرة، واختفت الشمس خلف الغُيوم السوداء كأنها خافت أن

يراها القادم، تجمعت العتمة في هذه البقعة فوقي وأصبحت أمواج ماء البحيرة تتكسر دون انعكاس بريق الماء فيها لتدلَّ على خشوعٍ ورهبةٍ، لم أشعرْ بالخوف لأني عرفت من هو الآتي، ولأنني قد حسمتُ أمري أن أفشي أسرار زيوس، فإن حلم الخلود عَصيٌّ على قبول حقيقتي، هأنذا أنتظرُه، فقد انتظرتُه عشرة أيام وها هو يُلبِّي ندائي، لحيتُه الزرقاء، وجِسمُه البلوريُّ، وصولجانُه ذو الرؤوس الثلاثة، وتلك الأعين التي تبرق كأنها أمواج ماء متلاطمة.

– لماذا طلبتني وأنت تعرف انشغالي الدائم؟

– إله النهر أسوبوس العظِيم... لقد طلبت المثول أمامك لأمرٍ لا بد أن تعرفه، فإن واجبي أن أخبرك به، وأنا عَبْدُك المُطيعُ.

– عبديَ المُطيعُ! لم أسمع يومًا توسُّلَك إليَّ وابتهالَك ودعواتِك، أين صلاتُك لي؟ أين قرابينُك وأُعطياتُك في مِحْرابي؟

شعرتُ أن الحلقة التي كان يجب أن تربطني به قد فُقدت، كان يجب أن أُقدِّمَ له التَّبجيلَ قبل لقائه بفترةٍ ليست ببعيدةٍ.

– تكلّم...

– ابنتُك إيجيا...

اقتربَ مني بانحناءةٍ كموج البحرِ، وصار رذاذُ لِحيتِه ينتثر فوق وجهي، وقال بانفعالٍ:

– ماذا؟ تكلَّم...

ترددتُ قليلًا في الكلام بدافع من الرَّهبة، ولكن هذه فرصة لن تتكررَ، وقررتُ أن أقولَ كل ما في داخلي:

– يا أيها الإله العظيم، يا مُنعدِمَ النَّظيرَ بوقفتك وجبروتك إني خادمُك منذ اللحظة، وطَوْعُ بنانِك، ابنتُك لقد اغتصبَها شخصٌ ما... أخذها بعيدًا واغتصبَها رغم صرخاتِها ليبتعد عنها، فقد تَمتَّعَ بجسدها فترةً طويلةً ولم يأبَهْ لألمِها ولكونِها ابنتَك.

هاجتْ أمواجُ البحيرة... وراحت الغيومُ تشكِّلُ زوبعةً فوق رأس أسوبوس، وصوت الرعد بدا قريبًا مني، وزَمْجَرَ قائلًا:

– مَنْ هو؟ مَنِ الذي تجرَّأَ أن يرى جسد ابنتي بغيرِ رِضاها؟! وكيف استطاع التغلُّبَ عليها؟ أجبْ...

وَجَّهَ رُمحَه إلى صدري وكأنه رأى بشخصي غريمَه، رفعتُ يدي وجثوتُ على ركبتي وقلتُ له:

– إنه الإله زيوس... نعم الإله زيوس مَنْ فَعَلَ هذا...

انتصبَ بعد وهلةٍ من السُّكونُ وراحَ يُفكِّرُ وكانت معالم التفكير تبدو واضحة الملامح حَولَه.

– لهذا لم تستطع ابنتي المسكينة مَنْعَه، وهي ابنتي وتملك قوة الماء... آه يا إيجيا المسكينة، ماذا فعل بك زيوس؟! إنه شَرِهٌ ويُحبُّ

الفتيات صَغيرات السِّنّ، هل يا ترى مَزَّق صَدْرَكِ بأسنانه؟ هل التهمَ شفتيكِ بعُنفه الفُجوريّ؟

انسحب ولم يكترث لوجودي، ولكن لمحةً أعادته إليّ وسألني: "هل أنا مُستعدٌّ لمواجهة زيوس؟"

كنتُ أرغبُ بالانسحاب بعد أن رأيتُ نُواحَه على ابنته، وأدركتُ أنه عاجز أمام زيوس، ولكني لم أستطع؛ لأني أقدمتُ على هذه الخُطوة فعلًا... أومأتُ برأسي بأني موافقٌ، وقد بدأ العَرَقُ يتصبَّبُ على وجهي، انسحبَ، وبدأت الشمسُ تظهر بقُرصِها الساخن، رجعتُ إلى البيت وأنا مُتأكِّدٌ أن زيوس لن يتجاهَلَ وِشايتي هذه، بل سينتقمُ... يا لي من أحمقَ! اعتقدتُ أني ندٌّ لزيوس، وما النتيجة؟ خوفٌ من غضبه وانتقامه، لا بُدَّ لي من حماية نفسي ورسم طريقة لخروجي من هذه المُصيبة.

وصلتُ إلى البيت وقد بدت عليّ ملامح الجَزَعِ، أطلّت زوجتي بسرعة مِنَ الرُّواق، ورَكضتْ باتجاهي وهي ترتدي ثوبًا مُعلَّقًا من جهةٍ واحدة بكتفِها اليسرى، وقد تركتْ شَعْرَها يُعربِدُ فوق عُنُقِها وكتفِها اليمنى، وما ظَهَرَ من صَدرِها الشّهيِّ، كانت خائفةً وتَشعُرُ بالرُّعبِ، مع العِلم أنها شهدت أكثر المواقف عُنفًا في حياتِها وهي معي، فعانقتني وقالت لي بلهفةٍ ومَحبةٍ:

- آه يا عزيزي، أنتَ بخير؟! لقد نمتُ قليلًا وراودني حلمٌ بَشِعٌ، حلمتُ أن زيوس يُصليكَ ببرقِه المُشتعل، وأنتَ عاجزٌ أمامه لا تستطيع التحرُّكَ، يا له من كابوس فظيعٍ! عندما نهضتُ لم أجِدْكَ هنا.

- أنا بخير لا تقلقي...

قُلتُ هذه الكلمات وقد تملكتني نوبة خوفٍ من حُلمها.

- هل أنهيتَ مُهمَّتَك السِّرِّيَّة؟

- نعم أنهيتُها...

عندها خطرت ببالي فكرةٌ لامعةٌ، أمسكتُ يدَها وسحبتُها خلفي إلى الشُّرفة المُغطاة بأوراق الزَّهرِ الورديِّ؛ لأجعلها تذهبُ في عالَمٍ من الرَّغبةِ والحُبِّ، وقُلتُ لها:

- أريدُ منك أن تنفذي أوامري وبدقةٍ، لقد كنتِ رفيقة دربي طيلة هذا العمر، وأُريدُك أن تساعديني لأتجاوزَ محنتي هذه، فأنا في طريقي إلى الخُلود.

هزّت رأسَها وهي تنظر بلهفةٍ وخوفٍ وفُضولٍ، وقبل أن تتلفظ بكلمةٍ من بين شفتيها الورديتين الشهيتين اللامعتين أكملت:

- لقد تَحديتَ زيوس، فَضحتَ مُشاكساته ونزواته مع النساء، وأيُّ نزوةٍ هذه المرة، أعتقدُ أنها نهاية لعهد من سيطرةِ منفردة لهذا

الإله، ولا أظنُّه يتركني أبدًا، لذلك أريد أن تتوقفي عند تقديم القرابين والأُضحيات لي بعد موتي.

نظرت بعينيها الممتلئين بالدموع، ووضعت يدها على فمها وبدأت بالبكاء الحارق.

– إذا فعلتِ ما أطلبه منك سأعود إلى هنا بعد موتي بقليل، سأعود إلهًا وستكونين زوجتي وحبيبتي وسنحظى بخلودٍ أبديٍّ.

اتكأت على صدري برأسها وعَرفتُ أن ليلتي هذه ستكون هي الأخيرة لي وقالت بصوتٍ يُخالطُه البكاءُ:

– ما لك والإله زيوس؟ إنه قادر يستطيع فعل ما يشاء... لماذا لا ترضى بوضعك وبحقيقتك؟! لماذا تصرُّ على إهلاك روحك مع ذاك المُتجبِّر؟! أنسيتَ ما فعل بالمسكين بروميثيوس؟ لقد رماه في جحيمٍ حارقٍ ليغير موقفه بعد أن ثبّته على الصخرة... وعندما قبل من زوجته هيرا أن تزج بهرقل ولده بتجارب مميتة فقط ليرضيها ويتمتع بالجنس في فراشِها...

– لا تقلقي فقد جهّزت نفسي لأي شيءٍ قد يقوم به ذاك المُتعجرف...

قلتُ هذه الكلمات وأنا متأكِّدٌ أنها خرجت مِني نتيجة خوفٍ ورهبةٍ، قبّلت زوجتي على شفتيها، فطالما رغبتُ في أن أشرب من

شفتيها في كل وقت لشعوري بالنشوة الجارفة، ونمتُ معها برغبة جامحةٍ وهي تنظر إليَّ وتبكي لشعورِها أنها لن تراني بعدَها، وكانت تشعر بهياجي وأني أريد أن آخذ منها كمًّا هائلًا من المُتعة ليبقى في ذاكرتي فيما بعد، انتهيتُ من ساعات متعة لذيذة، وجلستُ في فسحة قصري الداخلية بعد أن تركتُ زوجتي تغطُّ بنومٍ عميقٍ بعد الإرهاق الذي هدّ جسدَها في فِراشي، كنتُ أنتظر رسولَ هاديس إليَّ ليأخذني إلى العالم السُّفلي مُكبّلًا، لم يَطُل انتظاري فَقَدْ شَمَمْتُ رائحة حريق ينبعثُ من الأرض، وأصبحت حمراء متلألئة وفجأة انكشفت عن نهر من النار يمور تحتي، وظَهَرَ من الأسفل تانتوس المسكين، بضخامته المُرعبةِ، رسولُ هاديس إليَّ يحمَل قيودًا من النار، رماها أمامي وبقيتْ في يدِه لطولِها، واقتربَ مِنّي ليضعَها في يدي ورجلي، ولكنني وقفتُ بهدوءٍ وقُلتُ له:

– أنا بانتظارك يا تانتوس المسكين، آه يا صديقي العزيز! كم أشفقتُ عليك من عملك هذا! ألم يخبروك بأني قويٌّ لدرجة أستطيع كَسْرَ هذه القيود بسهولةٍ؟

توقَّفَ عن الحركة وكأنه سَمِعَ ما يُريبُه وما لا يعرفه فعلًا، سكَنَتْ نار هياجه، وخمدت فوق مُتونه، وبدأ الدخان الأسود يتصاعَدُ بدل اللّهيبِ، فعرفت أنه قد بدأ يفقد قوتَه الجهنمية، فأخذتْ خطتي تعمل جيدًا، وأكملتُ قولي بحماسةٍ وثقةٍ وهدوءٍ لتكتمل صورتي أمامه:

- لا أعتقد أن هاديس سيرحم عَجْزَك وتقصيرَك، فقد عرفتُه كما لم يعرفه أحدٌ، حقودٌ يحبُّ الانتقام والتعذيب، يا عزيزي تانتوس المسكين!

وقف تانتوس بظهره المنحني ووجهه المتجعد المحروق، وكانت يداه قد ارتخت لتُسْقطَ الأصفاد النارية المُلتهبة، وقد أخذته الحيرة، لم يستطع أن يُميِّزَ خُدعتي هذه، ولكني أعرف هذا التانتوس المسكين! فهو غبيٌّ، وعقلُه لم يكتملْ، يسعى لتنفيذ أوامر إله العالم السُّفلي فقط، اقتربتُ منه وقلتُ له:

- تعالَ يا صديقي، فسوف آتي معكَ لكيلا يغضب هاديس العظيم، ولكن يجب أن أُجرِّبَ هذه الأصفاد، هل هي قوية أم لا؟

ابتعدَ عني، ورَفَضَ الانصياعَ لأمري، ولكن ابتسمتُ قليلًا له فشعرَ تانتوس بالاطمئنان، وأَصْدَرَ صوتَ تمتمة دليل رِضاهُ وامتنانه... أم توسُّلِه لا فَرْقَ، واقتربَ مني وهو في حيرة الطفل الصغير لا يستطيع اتخاذ أي قرارٍ حيالي، تقدمتُ وطلبتُ إليه أن يحملَ الأصفادَ، وأن يكبّل يدَه ورِجْلَه فيها، وأن يجلس في غرفتي الصغيرة، فإذا استطاع أن يفلت منها أعطيتُه أصفادًا أقوى ليُكبِّلني بها، وإذا لم يستطع فهي تفي بالغرض، لم أستطعْ لَمْسَهُ فهو مُحترقٌ، ونيران في جسده تخبو وتشتعلُ، أخذتُه للغرفة، فهذه الغرفة بالذات لا يعرفها هاديس ولا أظنُّه يستطيعُ سَماعَ استغاثة تانتوس منها، فقد وضعتُ

فيها فيما سبق قطعة من شعرِ ميدوزا الشريرة التي تُخيف أعتى الآلهة، ونابًا من أنياب الكراكاين وحش هاديس المدلل، ووضعتُ الأصفاد في يديه ورجليه وخرجت وأغلقتُ الباب خلفي، وطلبتُ إلى زوجتي ألّا تقتربَ من هذه الغرفة، وهربتُ إلى الغابات أختفي هناك بعضَ الوقت.

بعد فترة مرّتِ لم أسمع بأي حادثٍ حَدَثَ، ولم أشعر أن زيوس يعرف ما الذي حصل فعلًا، وأن هاديس لم يشعر بغياب رسولِه تانتوس المسكين، ومع هذا لم تهدأ حيرتي، فذهبتُ إلى معبد أفروديت في أعالي الجبل، قد كان بيني وبينها علاقة حبٍّ جسدية فيما مضى، ربما تشفعُ لي عندها، تُوجَّهْتُ إلى الجبل، ولكن الأشجار كانت قد تكسرت على جانبي الطريق، وكأن شيئًا ضخمًا مرَّ من هنا، تقدمت أكثر فهالني ما رأيتُ، ولم أستطع التراجُعَ أو الاختفاء، فقد كان آريس الإله الشاب الذي كنتُ أخافَ ذِكْرَهُ، فقد كان يقتلُ أتباعَه بالمبارزة، وأقِفُ نظير قلعة من صخر تُكَسّرُ كثيف الغيوم حولها، نَظَرَ إليّ وهو يقف على عربته ويحمل رُمحَه اللامع، أومأ لي أن أقتربَ وأنحني أمامه بإشارةٍ من يدهِ، وقال لي بصوتٍ هادئٍ وقد لمحتُ السماحة في وجهه:

– اقتربْ... فقد كنتُ أنتظرُ مَجيئك...

– سيدي الإله آريس... ذو التبجيل والعزة... بماذا أستطيعُ مُساعدتَك؟

– لا أريد منك أي مساعدة بل أمرًا...

اعتقدتُ أنه يريدُ أخذي إلى زيوس مُكبَّلًا، لم أتوقع هذا الأمر ولم أجهّز له حلًّا، انحنيتُ لأسمع ما يرومُ قولَه وقد جالت في رأسي عدة أفكارٍ مُشوَّشةٍ، لم أستطعْ ضَبْطَها.

– أريدُك أن تحتفظ بتانتوس المسكين فترة أطول.

دُهشْتُ لهذا الطلب، فما شأن آريس وتانتوس، فقلتُ لهَ:

– ولكن تانتوس ليس معي ولا أعرف أين هو...

قاطعني بغضبٍ وقال لي وهو يُوجِّهُ رُمحَه إليّ:

– أيها المُخادِعُ.. أعرف أنك تحايلت عليه وسجنته في مكان ما، فلا يقدر تانتوس المسكين على مقاومة دهائك ومَكْرِك، إن غياب تانتوس جعلني أستمتعُ كثيرًا، فقد صار الجنود يتبارزون دون موتٍ، قد توقّفَ الموتُ لغياب تانتوس المسكين، وأعرف أنك مَنْ أخفاهُ، لا تَدَعْهُ يظهرْ، وإلا أرسلتُك إلى هاديس بيدي هاتين، وأنتَ هنا في مأمنٍ فقد شَملْتُك بحمايتي، ولكن احذر من مخلوقات زيوس فلا سُلطةَ لي عليهم، إنهم خدَمُه المُطيعون.

زوبع المكان، وانسحبَ بضجةٍ وزلزال مع عربته الذهبية، بعد أن أعطيته إشارة أني فهمتُ ما يريده، وعرفتُ حينها أن قانون الأوكروبولس قد اهتزّ، فلا موت يجوس بين الأحياء ولا أموات يدخلون بوابة العالم السُّفليّ، ماذا سأفعلُ؟ لا يمكن أن يسكتَ زيوس عن هذه المهزلة بالإضافة أن هاديس مَلِكَ العالم السفلي قد دَخَلَ في لعبتي، وأصبحتُ من المغضوب عليهم عنده...

مرَّت أيامٌ وأنا أتجولُ في الجبال لأجتني الثمارَ وآكلَها بعد أن كنتُ آكلُ أشهى اللحوم المشوية، وأذهب إلى الينابيع والغُدران لأشربَ منها بعد أن كان شرابي الخمر المُعتّق، وكنتُ أختبئُ من الميناتور... تلك المخلوقات البشعة، نصف إنسان ونصف حيوان، إنهم من أتباع زيوس، وأعتقدُ أنهم يبحثون عني، وكنتُ أنتظر حربًا ستنشب بين زيوس وأسوبوس لاغتصابه ابنِته، ولكنها لم تحدث... وكنتُ أنتظر حربًا بين زيوس وهاديس لفقدان رسول العالم السفلي وأيضًا لم تحدث... وحربًا بين زيوس وآريس لأنه طلب مني عدم إظهار تانتوس المسكين وشملني بحمايه في هذه الغابة... ولم تحدث، فقد باءت مُحاولاتي بالفشل، ولكن صراع البقاء يتحكّم في مصيري، لقد حاولت أن أحصل على شيء ليس لي أو أنه لم يكن لي يومًا، وبذلك أكونُ قد أخللْتُ بنظام الحياة والوجود، فلو أني قبلتُ بوضعي ومكاني في الحياة لكانت انقلبت حياتي على نحوٍ أفضل، دائمًا يتعلم الشخص

عندما يغرقُ في الخطأ، وليس بمقدور أحدٍ الوصولَ إلى القمة دون تسلُّقِ السُّفوح، ومن يرغب بمصادقة العقارب فعليه أن يتجرَّعَ سُمَّها، وليس للرِّيح وجهٌ ومع ذلك فإننا نراها في كل مكانٍ حولنا.

قررتُ العودة إلى القصر وإطلاق تانتوس المسكين، فلن يستمرَّ هذا الحال، يجب أن أضع حدًّا لهذا التشرُّد الذي أنا فيه، قد يسعفني عقلي بخطةٍ جديدة ربما تكون نافعة، نزلت من الجبل وأخذتُ الطريق المُعتاد إلى قصري، ولكن سرعان ما انشقت الأرض وهويت بين حوافِّها المكسورة إلى الأسفل بعد ضجيجٍ في الأُفُقِ، ولمحت النار من تحتي ورائحة الحريق، فعرفتُ أني بطريقي إلى العالم السُّفليِّ، وأن الأمر انتهى، وصلت إلى الأرض هناك ورأيتُ النار تتدفَّقُ من جوف الأرض كأعين الماء، والأرواح التي تسير طوابير باتجاه بوابة العالم السُّفلي، فعرفتُ أن تانتوس المسكين قد أُطلق من جديد، مشيتُ في الأرجاء بخوفٍ وحَذَرٍ، فهذا العالم يأخذ صفة صاحبه... هاديس الغاضب وبأي لحظةٍ قد ألقى غضبه، وكنتُ أخشى أن ألتقي بتانتوس المسكين، فقد خدعتُه ورغم غبائه سينتقمُ مني، مشيتُ في رِحابِ العالم السفلي، وبدأت النارُ تنالَ منِّي، وكان سبب ارتفاع حرارة جسدي هو غَلَيانُ الدَّمِ في عُروقي، فقد بدأت شراييني تتوهَّجُ تحت جلدي، فانتابتني حالةُ ضيقٍ وعطشٍ لا توصفُ، ولم أشعرْ بها قبلًا، فجالت في رأسي حالة عطشي وجوعي عندما قدَّمْتُ الجبن للكلب، لم تكن بهذا الشكل

أو بهذه القوة، تقدَّمتُ قليلًا لأشرب بعضًا من الماء، ولم أجدْ شيئًا، ولكن وجدتُ رجلًا عجوزًا يجلس ويشرب الماء، اقتربتُ منه لآخُذَ بعضَه، ولكنه زَجَرَني وقال لي:

– ألم تترك في حياتك هناك في الأعلى عملًا صالحًا ليَذْكُرَكَ الناسُ به ويقدمون القرابين والأضحيات لك؟

فقلت له بغضبٍ وهياجٍ:

– ألم تعرفني أيها العجوز الخَرِفُ؟ أنا سيزيف العظيم...

نظر إليَّ بنظرةٍ سخريةٍ وكأني أطلقتُ نُكتةً جديدةً، وقال لي:

– لا أعتقد أنك بمثل عظمتي، فاذهبْ واجلسْ بعيدًا عني قبل أن أَبْطِشَ بِكَ.

قررتُ قَتْلَ هذا العجوز فورًا، فقد ردَّ عليَّ بثقة كبيرة أنه سيقتُلني، ولكن كيف وهو عجوز خَرِفٌ؟! تراجعتُ لأحْمِلَ صخرةً وأقذفه بها، فأعمل رأسه على الأرض، ولكن لمحتُ فيه شيئًا هزّني وجعل فرائصي ترتعدُ، إنه العقب الذي عرفناهُ، لقد كانت هناك آثار طعنةٍ في عَقِبه... عرفته... إنه أخيل بطل الأثينيين طويلي الشعر مُدمر طُروادة وقاتل هيكتور، يا لها من دوامةٍ! حتى أخيل ينتظرُ مَن يُقدِّمُ له الأضاحي في الدنيا! فلا أحد هنا في العالم السفلي له سلطةٌ أو أولويةٌ إلّا بعمله في الدنيا، فإن كان خيرًا يجد الخيرَ، وإن كان شرًّا يجده

شرًّا... إنه قدرٌ مَحتومٌ يَلحقُنا ويلتصقُ بنا مثل خيالاتِنا، ولكننا نرفضُه ولا نريدُ أن نراهُ.

ولكن.... تذكَّرْتُ وصيتي لزوجتي، انفرَجَتْ أساريري، ورحتُ أصرخُ بصوتٍ عالٍ:

– أنجدوني... أنجدوني...

التمعت الأجواءُ حولي، وإذ بسيدةٍ طويلة ساحرةٍ وفاتنة، وفستانُها المُشتعل قد غَطَّى جسدَها الناريَّ، وبدا عليها أنها تملك السُّلطةَ هنا، ركضتُ إليها لأنحني أمامها بعد أن عرِفتُها، وقلت لها بصوتٍ فيه تُضرُّعٌ ورجاءُ:

– مَليكتي برسيفوني... ملكة العالم السفلي... يا من أَسرتِ لبَّ هاديس الغاضب، وتحدَّثَ عن سِحْرِك آلهةُ الأوليمب... مَليكتي وسيدتي...

عندما تلمّستْ مديحي لها وهتان حالة خوفي منها شعرتِ بأني بدأتُ أمشي في طريق الخروج، وكان لا بد من أن أوقع بها هي الأخرى، فهي في النهاية أنثى... وأكملت:

–مَليكتي الساحرة، لقد قررتُ أن أبقى في هذا العالم قريبًا مِنْك، وحيثُ تكونين، أرَّقتْني الليالي وأنا أُفكِّرُ بسحرِك الطاغي، اسمحي لي أن أبقى بجانبك أتوسَّل لجمالك وسِحْرِك...

نظرتُ إلى وجهِها فإذا به يَشِعُّ فرحًا وحبورًا، فقالت لي:

– تقدَّمَ إليَّ لأراك..

– نعم يا مَليكتي الرائعة، أنا أسيرُ جمالِك الخلّاب، اسمحي لي أن أنظرَ إلى وجهِك الساحرِ الذي عجزتْ عن وصفه عرّافاتُ الجبل، ولكن يا مليكتي أنا هنا لا أملكُ رصيدًا أتبلّغ به، فزوجتي الحقود تركتني ولم تُقدِّمَ لي الأضاحي كونها زوجةً مُخلصةً لذِكْرَى زوجِها، هل تعرفين لماذا؟

– لماذا؟

– لأنني قررت المجيء إليك يا مليكتي الساحرة.. دعيني أخرجْ لأوصيها بأن تُقدِّمَ لي القرابين والأضاحي فأعود إليك باقيًا معك إلى الأبد يا حلوتي ومليكتي الساحرة.

وقعتْ برسيفوني تحت تأثيرِ غزلي، وبدا عليها أنها أنثى من جديد، أو ربما كانت تعرفُ أني مُحتالٌ مُخادِعٌ، ولكن قررتْ مساعدتي لتتخلّصَ من مَكْرِي هنا في العالم السفلي، فقد تقع تحت تأثيري وتصبح في مواجهة حتميةٍ مع زيوس ومع زوجها هاديس، فهي على أي حالٍ مثلها مثل أي حاكم يرفض الأذكياء من حاشيته، رفعتْ يدها ولوَّحتْ بصولجانِها الناريِّ حولي، فارتفعتُ لأعودَ إلى قصري هناك، وقعتُ في باحة القصر وقد بدا عليَّ الاحتراق، ركضتُ وأنا أمزّق ثيابي المترمّدة إلى بحيرة القصر، رميتُ نفسي بها، وأخذتُ نفسًا

عميقًا أني أصبحت في أمانٍ.. وقررتُ فعلًا أن أضع حدودًا لطُموحي؛ فقد بات لا يُطاق، فإن زيوس لن يتركني هنا بعد الذي فعلتُه، وإن الشخص لا يُدْرِكُ العِلم إلا بعد الوقوع في الخطأ، وهذا ما تعلمْتُه فعلًا، صَرختُ بصوتي لتسمع زوجتي صوتي وتأتي إليَّ، فقد اشتقتُ لها كثيرًا، وأحسستُ أن شَهْدَها سيرويني من جديدٍ، وكنتُ قد فكَّرْتُ سابقًا أن قبولي للرحلة هذه كان هو اختياري، وأنا مسؤول عن هذا الاختيار، إن هذه الرحلة بكل ما فيها اعتراف بالعجز الروحي، وإنكار الاستفادة منها هو الجحود الحقيقي بذاته، فكلُّ شيءٍ قد يكون له مكان ومعنى...

أخذتني نوبةُ نُعاسٍ قويةٌ، فكنتُ أريدُ قبل كل شيء أن أرى زوجتي ولكن غلبني سلطان النوم هذا، وعندما استفقتُ من سَطوتِه وجدتُ نفسي واقفًا أمام زيوس ذاته، ذاك الإله الذي وضعتُ نفسي ندًّا له، نظر إلي وقال لي:

– وأخيرًا التقينا...

قررتُ أن أعترفَ له أني عجزتُ عن مُقارعتِه، وسأبقى كما أنا... ولكنه أردفَ:

– أنا مُعجبٌ بك، وسأُرقيك بشرطٍ واحدٍ فقط...

نسيتُ بعد جملته الأخيرة تفكيري السابق أني كنتُ قد اعتزمتُ أن أبقى بمكاني كوني إنسانًا... ولكن عرض زيوس أغواني من جديدٍ،

فقد كان يعرف – حَقَّ المعرفةِ – أن طموحي لن ينتهي، ولن يتوقف، فمن بدأ بأول حياته بالنظر إلى ما هو فوق طاقاته وخسر من جوهره الصافي لأجل غايته لن يتخلص من غيّه هذا إلا إذا اكتوى بنار المادة والجسد، عرف زيوس تركيبتَنا نحن البشر، فقلتُ له بصوتٍ لا يخلو من الثِّقةِ والتَّعالي:

– أنا مُستعدٌّ لشَرْطِك...

– دون أن تعرفَ ما هو؟

– لا... لا أريدُ أن أعرفه... فوجودي هنا دليلٌ على كفاءتي.

ضحك زيوس وقال لي بحزمٍ:

– أترى هذه الصخرة؟ أريدك أن تُدحرِجَها إلى قمة الجبل فقط وعندما تُثبِّتُها هناك ستصبح إلهًا مثلي.

– إن هذا الأمرِ لا علاقة له بقُدراتِي العقلية أو ذكائي، ولكني موافق.

ارتميتُ إلى أسفل الجبل، وأمسكت بالصخرةِ، وبدأتُ أُدحرجُها إلى الأعلى، وبرغم مشقة الأمر كنتُ قد عزمت عليه وأنا أتناسى ما جال في خاطري من تجربتي: "لا يتعلم المرء من تجارب الآخرين، ولكنه يتعلم من تجاربه الخاصة، ويُعلِّمُ الآخرين من ألمه وعذابه"

هذا ما كنتُ أُفكِّرُ فيه، وقد أَصبحت الصخرةُ قريبةً من القمة، فعندما تصل إلى القمة سأصبح إلهًا ذكيًا لا أحتاج لأن أتعلم ولا أريدُ أن أُعلِّمَ...

أغلقتُ الكتاب بعد أن شعرتُ بتعبٍ يقهر كتفيَّ، غصّة وقفت بحنجرتي وأنا أطرح سؤالًا وحيدًا:

– لماذا ضيّعَ سيزيف نفسَه في جحيم رغباتِه، وقُدراته قد تصنعُ منه شيئًا كإنسان، لماذا بعدَ أن وصل إلى الانعتاق منها، لماذا انصاع لأمر زيوس بعد أن تحرَّر من سطوته... مَنْ زيوس؟

نعم إنه صوت الطُّموح والتكبُّر فينا، نعتقد أننا آلهة في لحظات من الطيش والتجبر وننسى أن ضعفنا يتجسَّدُ في هذا البدن الذي نسكنه، فسينهزم يومًا ما أمام أضعف المخلوقات... دود الأرض...

لقد تعبتُ حقًا... نظرت إلى العجوز ورأيتها تغطُّ في نومٍ عميق لذيذ، والنار قد خبت في حضن الموقدة، وبقي جَمْرُها متقدًا يحتضنُه الرَّمادُ حوله، نهضتُ لأضَعَ الكتابَ مكانَه وأنا على يقينٍ أن هذا الرّف وهذه الكتبِ مرّت على رأسي فيما سَبَقَ، ولكن لا أتذكّرُ أين رأيتُها، ومتى رأيتُها، كانت تنقصني بعض التفاصيل لتكتمل الصورة حولي، وحاولتُ أن أسْبَحَ في سِحْرِ الأثير لأجِدَ الإجابة، ولكن قالت لي العجوز بصوتِها المتعب:

- لا تبحثْ عن أي شيءٍ خارجَ حُدودَك... ابحثْ عنه فيك... فيك انطوى الكون وما فيه، وفيك وُجِدَ سِرُّ الحياة والخُلود...

قالتِ هذه الكلمات وعادت لتُقلّها غربةُ النُّعاسِ وتمضي في نومِها، وقد أخرجتْ في هذه العبارة البسيطة الحيرةَ من رأسي وجعلتني آخذ نفسًا عميقًا أني سأجد ضالتي حتمًا، فهي موجودة فعلًا، ولكن عليَّ العثور عليها، وفهمها، وإدراكها بشكلها الحقيقي الصحيح.

عدتُ إلى كرسيَّ لأُشارِكَ العجوز في لَذَّةِ نومها العميق، وقد تناسيتُ ألم رجلي وأصابعي المتجمدة، وعرفتُ أن هناك ألمًا لا يُقاسُ بألمِ الجسد... وإنما بألمِ الرُّوح المسكينة التي تتخبَّطُ في جسدٍ يرفض قَبول مكانه الحقيقي في الترانيم الكونية ليعزفَ نُوتتَه على آلته المُخصَّصة له، وجُملته المخصصة له، فإن الموسيقا الكونية تتناغَمُ بكليتها ولا يَقْدِرُ أحدٌ أن يعبثَ فيها؛ لأنها خالدة موجودة، وتُعزَفُ على أرواحٍ اتَّحدت لتبقى في خُلودٍ مُتماهٍ مع جوهرِها، فمن شذَّ عنها وقع في القَعْرِ وضاعَ بين أنغام الفوضى وطنين الجسد الفاني.

الباب الثالث

"أَنتُمْ مِلحُ الأَرضِ، فَإنْ فَسَدَ المِلحُ فَبِمَاذَا يُمَلَّحُ".

متّى 5: 13

البيوت تشمخ في ضباب الصباح وقد التمع فوقها صليبٌ ذهبيٌّ كبيرٌ، زقزقة الطيور ينبعثُ من بين أشجار المكان ورائحة الضوضاء ترشُّ أناملها فوق أسماعي، وقد بدأت شمس الصباح بنثر كمشاتٍ من الضياء المنعش على أسطح البيوت القرميدية الحمراء المثلثة، وعندما نَقَلَ الأثير ترانيم الأجراس المقروعة أخذتني النَّشوة إلى أعماقٍ أحببت أن أخوضَها، وبدأ جسدي يترنَّمُ مع طَرْقِ الأجراس، وقد بدا نغمُها مألوفًا لديَّ، فهي نغمة من نغمات الموسيقا الكونية تأخذ الأرواح في تذبذباتِها إلى حيث لا مكان... لا أرض ولا سماء ولا وجود إلا وجود الذات الكاملة...

شعرتُ أن يدًا حطت على كتفي، نظرت فإذا بها العجوز صاحبة الكوخ، ولكن لم تكن عمياء، نفس العجوز ولكن بمظهرٍ مختلف، بدا عليها الرُّقي والحياة الرغيدة وفي رقبتها صليب ذهبي كبير يغطي نصفَ صَدرِها..

- أأنتَ بخير اليوم؟ هل قَدَمُك بخير؟

لم أستطع الإجابة، فكأني فقدتُ جزءًا من الزمن، ركّزتُ أفكاري وحاولت أن أنظر إلى الحقيقة المعرفية بعين روحي وليس بعين جسدي، قد تتكرر حادثة الشلال مِرارًا وتكرارًا، أغمضتُ عيني وأطلقت داخلي صوت "آووووم" لأتصل مع معبد الحكمة، ولكن كانت الإجابة سريعة جدًّا...

- إنك متصل فعلًا بالمعبد، وإن ما تراه هنا هو حقيقة وليست وهم المادة.

كان هذا صوت العجوز، فتحت جفوني وإذ بها تبتسم نفس ابتسامة الحكيم، شعرتُ برغبة للبكاء، فقد أحسستُ كم أشتاق لذاك الرجل اللّطيف... أدركتُ أن المعرفة لا تحدُّها الاتجاهاتُ ولا تدخلُ في غيبوبةِ الزمن، ولا تتأثرُ بالمكان والمسافات، فهي موجودة قبل هذا كلّه، سبقتهم بالوجود فارتفعت بصفاتِها عنهم، نعم الأسبق هو الأرقى بصفاته، بدأت المعرفةُ وانحدرت منها الموجوداتُ، وبقيتْ مُتصلةً تمدُّهم بالحقيقة من رُوحها لأنها الأقدم والأبقى.

- حدثيني عن الكنيسة...

قلتُ هذه العبارة بعد صمتٍ خفيٍّ بروحي وكأنها انطلقت من داخلي دون أن أفكر فيها، فقد كانت تراتيل الأجراس ما زالت في رأسي رغم توقُّفِها في برج الكنيسة، قالت لي بعد أن أمسكتْ يدي وشدّت عليها بنوعٍ من الإصرار:

- هناك في الداخل ثوبٌ خاصٌّ للكنيسة، وهو لك ارتدهِ وأنا بانتظارِك هنا.

تَحرّكتُ إلى الداخل فارتديت ثوبًا أسود ضيقًا على قَدْرِ جسدي من الأعلى ومن الأسفل، واسعٌ مُريحٌ بياقته البيضاء المدورة، والسلسلة المُعلقة في عُنقي، وفيها نفس الصليب الذي أحببتُه، فاحت

من الثوب رائحةٌ كنتُ قد عرفتُها قبلًا، لا بدَّ أنها رائحة الغرفة في المعبد ليلة دخلته أول مرة، رائحة يختلط فيها الانعتاق بالإيمان، رائحة قُدّاسٍ كنائسيٍّ، الأمر مريح بكل الأحوال فهو نوع من الطمأنينة، خرجت فإذا بالعجوز، تنتظرني فمشينا إلى الكنيسة بعد أن باركتني بيديها:

باسم الأب والابن والروح والقدس

– لقد كان المسيح يعرف أنه سيحمل خطايا البشر، ويعرف أنه سيذوقُ العذابَ، فقد دخل الهيكل وبدأ يبعثر بسطات المبيع ويقول:

– هذا المكان للربِّ وليس للتجارة، سأهدمُ هذا الهيكل وسأبنيه في ثلاثة أيام...

ردّ عليه أحدُ اليهودِ مُتهكمًا:

– لقد أمضينا في بناء هذا الهيكل ستًّا وأربعين سنة فكيف ستبنيه أنت في ثلاثة أيام؟

كان يعني ما يقول، فإن الهيكل هو جَسدُه الماديُّ الذي نزل روح القدس فيه، وهو الجسد الذي رأته أعين البشر لتصدق أن الرَّبَّ موجودٌ بوجود هذه الروح القدس، ورغم هذا حاولوا هدم الهيكل، ولكنه بناه بعد ثلاثة أيام... نعم بناه فعلًا...

صمتت العجوز بعد أن نشجت حنجرتُها بالبكاء، غَصتْ غصاتِ شوقٍ لتلك الروح القدس المجيدة، تقدمنا إلى الكنيسة وكانتِ الرَّهبة تسري ببدني كلما اقتربنا منها وصوت الأجراس يرتفع ويتزايد بجمالٍ وسحرٍ روحي عميق، بدأت رائحة البخور تُعبِّقُ المكان لتحيط المريدين بخشوعِ الجلالة قبل الدخول، دخلتُ وأنا أفكِرُ في الجسد والهيكل وسكون الروح القدس فيه، عبرتُ الباب وكانت أضواء الكنيسة خافتةً والبخور يتصاعَدُ من المباخر على الجُدران، تقدَّمتُ للمِحرابِ وقد لَفت انتباهي تمثالٌ مَصنوعٌ من الفضة الخالصة، تقدَّمتُ والفكرة لا تزال تنكبُّ على أعصاب جبيني، ولكن بخشوع رباني شفيفٍ، وقفتُ أمام التمثال، ورُحتُ أنظرُ إليه... ربما الأسئلةُ قد اجتمعت فوق رأسي الآن وأنا أمام تمثالِ شخصٍ مَرفوعٍ على صليبٍ خشبيٍّ قد ثُبتت المساميرُ بيديه ورجليه وأحاط برأسه تاج من العوسج الشائك، وقد سِيمَ هذا الجسد أنواعٌ من العذاب، فيبدو أنه مُمزَّقٌ فعلًا...

صعدتُ بنظري لأرى ملامحه وهنا تجمَّدت الدماء في عروقي، إني أعرفُ هذا الوجه، أعرفه جيدًا، رأيته في اللا مكان حيث ترانيم الموسيقا الكونية، لم يكن تمثالًا، كانت عيناه تلتمعان ببريقٍ يعكس حبًّا وتوسُّلًا...

– هل كان يتوسل لخالقِه أن يساعده على بلواه؟

– هل كان يطلب الحب لمن حوله وهو معلّق على الصليب؟

جالت في رأسي أفكار كثيرة، وبدأت أسمع "الآوووم" ثانية ولكنها كانت قد بدأت ترانيمَها مع تراتيل الأطفال في الكنيسة أمام المحراب تُرافقها موسيقا ساحرة من آلة نفخٍ تُصدر زفراتِ الخُشوع والإيمان والسكون في خِضَمِّ هذا المكان الكبير.

***

كنتُ أسمعُ الأصوات حولي... لم أفرّقْ بين مُحبٍّ ومُبغضٍ، ولكني كنتُ أتوسَّلُ الرحمة للجميع، قبل أن تتشكل الأرض وأن تتشكل السماء وقبل أن يظهر الزمان والحدود والمكان، كنت هناك أطوف حول العرش النوراني بتسبيح وتحميد، أتبارك بالروح الكاملة بالذات المعرفية، وكان حولي كثيرون من الملائكة المسبّحين، ومن الأرواح التي كانت تنتظر أن تبدأ المباشرة بالذات لتدخُلَ في "الزملكان"...

منهم من كان نورًا صافيًا بجوهرِه، وكنتُ أستطيعُ رؤيتَه، ومنهم من كان نارًا حارقة تتلظّى لتدخل المادة، ومنهم من كان ينتظر دورًا ليكمل ما سوف يبدؤه الذين قبلنا، وأنا والذي بعدي بروحه الزَّكية... ولكن في تلك الأزمنة كنت أعرفُ أني سأدخلُ هذا الهيكل لأرتفع به عبر أناتٍ وآلامٍ لم يرتشفها مخلوقٌ على وجه الأرض، وكنتُ مُستعدًّا لها... وأذكر متى بدأتُ أنتظر الموعدَ.

عندما كان أخي الحبيب يحيى بن زكريا يعمّد الناس في نهر الأردن تمهيدًا لقدومي، تقدمتُ لأتعمَّد، لم يكن يعرفني، ولكني كنتُ أعرفُه جيدًا، فهناك في التسبيح حول نور الذات كنتُ ألقاهُ دائمًا بنورِهِ البَرَّاق، تقدَّمتُ إليه وتعمدّتُ بماء النهر الباردة وسَرتْ رَعشَةُ البردِ في بدني لأبدأ مسيرتي في إكمال رِحلتي في الهيكل، وها قد مرت الأحداثُ وتتالت المُعجزاتُ وهم لا يفهمون، فعندما رأيتُ طِفلةً ميتةً، كنتُ أرى روحها التي راحت تُحلِّقُ فوقَها، فأمرتُها بالعودة... فعادت.

هذه الليلة وأنا أصلي - وكنتُ أشعر أن الربَّ يُحيطُني برحمته والطريق النوراني مفتوح بيني وبينه - كنتُ أسمع ترانيمَ الفِردوسِ الأعلى، ولكن نهضتُ من خشوعي فوجدتُ أن عَرقي يتقطر دمًا فوق الصخرة، ورأيتُ إخوتي نزلوا ليشاركوني الصلاة، فعرفت أنها البداية، قلت لتلاميذي الأعزاء قوموا فصلّوا... أوشك الفجر على الانبلاج، وكنتُ قد فقدتُ من بينهم ذاك المسكين الذي كان يعتقد أن الدنيا تُعادِلُ الذّهَبَ والفِضة، حاولت أن أُفهمه الحقيقة ولكنه لم يفهم أو أنه لا يريد أن يفهم، لحتُه يتقدم إليّ وهو يرتجفُ، رأيتُ رُوحَه خائفةَ مُرتعدةً، فقلت لها:

- هيا أكملي ما قررتِ فعله ودعي "يهوذا" يفعل ما يحلو له فقريبًا ستغادرين هذا الجسد وستكونين حرة...

بكت الرُّوح أمامي وتضرعتْ لي أن أسامحها، فقلت لها ألّا تجزع فهي ستعودُ إلى الذات.

تَقدَّمَ مني يهوذا وقبّلني ليعرف الحرس شخصي، عندها رَكَضَ الحبيب بطرس، وقَطَعَ أُذنَ أحد الحرس، فأسرعتُ إليه لأن روحه أطلقت صرخاتِ ألمٍ، ركضتُ ووضعتُ يدي على أذنه المبتورة ليتوقَّفَ الألمُ والنَّزفُ، فأنا لا أُطيقُ عذابَ أحدٍ من المخلوقات، حتى إبليس دعوت له أن يدخل في الرحمة ويتوب للذات.

لقد بَزَغَ الفجرُ بعد كَمٍّ العذاب هذا، إن جلدي قد تخدر والنسمات الهادئة بدأت تغرز أصابعها في جراح ظهري وفي الأخاديد التي صنعتها السياط، كنتُ أزفرُ ألمي وأنا أفكر ألّا يذوق أحدُ الخِراف الطَّيِّبةِ هذا الألَمَ، أنا أعرف أني سأنالُه وقَبِلْتُه بقولي بكل حُبٍّ وتسليمٍ:

"فلتكُنْ مَشيئتُك"

ها هم يخرجون وأنا مَربوطٌ إلى العمود في الساحة، أسمعُ الصراخ والبكاء والعويل، نعم لقد سمعت الأرواح التي تبكيني، والتي رقّت لعذابي، فكنتُ أدعو لها بالرحمة والطُّمأنينة، وأنا ألتقطُ أنفاسي دخل الجُند رفعوني عن الأرض، وكان كلما اقتربَ مني أحدُهم أسمع رُوحه تبكي عليَّ، رفعوني وقادوني إلى خارج الساحة، وقفتُ وأنا أنزف من كامل جسدي والألم يزدادُ بنبضات قوية، تخيلتُ أنه سيُغمى عليَّ وأقع على الأرض، ولكن بقيتُ واقفًا، وفي كل لحظة كنتُ أسمع

ترنيماتِ الرُّوح الخالدة، فردوس الذات لم تفارقني لحظة واحدة، جلبوا الصليب الخشبي من بعيد، ولا أستطيع وصف فرحي برؤيته فهو المرحلة الأخيرة والسُّلّم الذي سأرتقيه للقاء أبي هناك في الأعلى، وضعوه فوق ظهري وأوثقوه جيدًا، ووضعوا فوق جبيني تاجًا من الشَّوكِ، كاد الشَّوكُ أن يصبح حريرًا، ولكن لا... يجبُ أن أخوضَ هذه التجربة كاملةً لأستحق البقاء الأبدي، تقدَّمتُ في الطريقِ، وبكل خطوةٍ كنتُ أشعرُ بألمٍ في قدميَّ اللتين كانتا تدوسان الزجاج المكسر فتتمزقان بسرعةٍ، ويبدأ الألم يتسلق أعصابي إلى قمة رأسي، الحقُّ أقولُ لكم: أتمنى أن أعيد هذه التجربة أكثر من مرة شرط أن تكون خرافي بخيرٍ، بدا جبل الجليل يظهر شامخًا أشمَّ، والطريق إليه طويلة ومرتفعة، ولكني سأتحملُ هذه الطريق، رغم أن البعض بدؤوا برجمي بالحجارة...

– يا ربُّ، اغفرْ لهم، واعفُ عنهم، إنهم لا يعرفون...

تقدَّمتُ بكل خطوةٍ وأنا أقتربُ من قِمة الجليل، وبدأت الريح تهبُّ وهي محمّلة ببعض الغبار الذي راح يحتُّ من جراحاتي فيزداد ألمها، أعرف أنها محنةٌ لا بُدَّ لي منها:

"فلتكُنْ مَشيئتُك"

وقفتُ وأنا مُنهكَ القُوى، خارت قوتي تمامًا، وسقطتُ على ركبتي والصليب الخشبي فوق ظهري، اقترب مني الجنودُ وفضُّوا رباط

الصليب الضخم وأزاحوه عن ظهري، أنا أسمعُ الترانيم الفردوسية تزداد وترتفعُ، فعلمتُ أني قريب لأن أصل إليها، فهذا يدلُّ على استقبالها لي على باب الجنة، كنت أنتظرُ أن يوثقوني على الصليب ويرفعوه، الشَّوقُ يُغالبُني لأصعد، رَمَوا بي إلى الأرض بعد ضربة من أحدهم لم أعد أذكر أين استقرت من جسدي؟ فالآلامُ في كل هيكلي واحدةٌ ومُتشابهةٌ، سحبوني على الأرض، ووضعوني فوق الصليب، وأمسكَ أحدُهم يدي وثبّتَها ليُدْخِلَ فيها المِسْمارَ الكبيرَ، وكنتُ أقول لأبي هناك في الأعلى:

- ارْحَمهُم فهم لا يعرفون...

كانت ضربات المِطرقة قويةً وشديدةً فقد اخترق المسمار باطن يدي وكسر عظام أصابعي، ضربات جعلت الألم ينبعُ من داخلي كالينبوع العذب، تدفقٌ من الألم الذي كان يمنعني من الصراخ لأني لا أميز مصدره، وشعرت بأن يدي الأخرى تزرح تحت الطرقات عينها، كنتُ أشعر بكل نقطة دمٍ تنسكب مني، خِفْتُ من شدة الألم ولكن زادت الموسيقى فوضى، فشعرت بنشوةٍ رائعة هَنية، ولم أستيقظْ منها إلا بالمسمار الذي اخترق رجليَّ بنفس المِطرقة...

عندما رفعوني على الصليب ورأيتُ الجميع تحتي ينظرون إليَّ شعرتُ أني حرٌّ وقريبٌ من أبي، عندها فاضَ قلبي بمحبتِهم هم جميعهم،

اليهود والرومان والنصارى التابعين لي والتلاميذ حتى إبليس لمحته بينهم وشَملتهُ محبتي أيضًا، وقلتُ لمريم البتول:

– إن لقائي بها قريبٌ هناك في الأعلى...

بدأت الشمسُ بالمغيب، وقد كنتُ أنتظرُ انفتاحَ باب الفِردوس، رأيتهم: إبراهيم وموسى ونوحًا وحتى ميكائيل ضارب السيف يقتربون مني ليأخذوني إليه... إلى كرسيّ ومكاني، أغمضتُ جفوني وأنا أتوسَّلُ لأبي أن يغفر لهم، وأن تشملهم محبته وتسامحه... وتذكرت الكلمة الأخيرة التي قلتُها وصعدتُ:

"فلتكُنْ مَشيئتُك"

فتحت عيني بُعيد انتهاء تراتيل الأطفال في الكنيسة، بعد أن شعرت بارتفاعي وارتقائي فوق الألم والحزن، ولكن موسيقا الفِردوس كانت تدقُّ في رأسي وحولي، كنتُ أريدُ أن أبقى في هذه النَّشوةِ لأجمع تفاصيل الفِكْرِ المتناثر فوق صفحة الروح، وبدأتُ أعودُ بالأحداث ببطء نزول الروح في استهلال المولود الجديد، أتذكرَ أن:

"لا يدخل أحد في الملكوت وفي قلبه مقدار حبة خردل من الكِبر".

"من كان بلا خطيئة وجب له محاسبة البشر على أخطائهم".

"مَنْ خَسِرَ نفسه لا يعوضها بربح العالم".

"إن معاشرة الأشقياء تُفسدُ الأخلاقَ الحميدة".

"حُبُّ الدنيا يعني طردَ محبة الربِّ من داخلنا".

اقتربت من التمثال وأنا أنسلُّ من روحه بخشوعٍ وهدوءٍ، اقتربتُ منه لأُقبِّلَ قدميه، فقد عرفتُ ما هي نظرة الحب، ونظرة التوسل التي كان يرسمها على وجهه، أدركت أن الخلود والصفاء لا بدّ له من رحلة دامية، وأن المحبة تصهرُ كلّ شيء في المحبة، المحبة والرحمة هي بذاتها جوهر المعرفة وهدفها، تذكرتُ أنه قيل لي قبلًا:

النفس البشرية مثل سبيكة الذهب كلما دخلت في النار تصفو من الشوائب

اقتربت العجوزُ مني وكان وجهي مُتعرِّقًا، أصفر اللون، وجسدي يرتعشُ، وقد تخدَّر ظهري من آثار السِّياط، جفّ حلقي وراحت نكهةُ الدماء تفور في صدري، حاولت النهوض ولكني عجزتُ، فالزجاج المكسّر على الدرب أثقل عليَّ، وآثار المسامير لا يزال يتوهَّجُ بألمٍ مُبرحٍ، نَظرتْ إليّ وعرفتْ حالتي، قبَّلتني على جبيني وقالت لي:

– سأخرج من الكنيسة إلى كوخي، أعرف أنك لن تلحق بي ولكن جلّ ما أرجوه أن ألتقيكَ هناك في اللا مكان حيثُ الحرية، عندما نرتِّلُ الترانيم الكونية الإلهية معًا.

الباب الرابع

"يَا نَفْسُ مَتَى تَعُودِيْنَ إلى المَكَانِ الأَسْمَى الّذِي كُنْتِ فِيْهِ؟!"

هرمس



نَهضْتُ بعدَ فترةٍ من التأمل وأنا مُلتفٌّ برائحةِ البخور الكنائسي، رفعتُ رأسي ولم أجد أحدًا في الكنيسة فقد كانت خاويةً لا يوجد فيها إلّا البطرك الكهل، نظر إليَّ واقتربَ ليجلسَ بجانبي فقال:

– هل أنت بخيرٍ يا بُني، فإن ارتجافك ينمُّ عن مرضٍ أو ألمٍ؟

– لا يا أبتِ ذهب الألمُ وبَقِيَ الوجود...

التفت إليَّ وكأنه لم يفهم قولي بدقةٍ، ولكنه ابتسم عندما سمع سؤالي...

– أين إبليس؟ كيف أستطيعُ أن أراه أو أجدَهِ؟

– إن إبليس يسكن داخلنا، ولكن في قفص الرُّوح، فإذا فتحنا هذا القفص مزّقَنا بأنيابهِ...

– لا... لا أعني الرأي المجازي... أريدُ شخصَه، أريد أن أتعرَّفَ إليه..

– في هذا المكان لا يدخل إبليس، وليس له سُلطة هنا في الكنيسة لا على الأرض ولا على الناس، وهناك مكان آخر أيضًا حُرِّمَ على إبليس أن يجوسَه أو أن يُعبد فيه، فهو مكان طاهر إلى يوم القيامة والحساب.

– وما ذاك المكان؟

– الكعبة... أرض الكعبة الشريفة... قبلة المسلمين الثانية والتي بناها سيدُنا إبراهيم، وطهّرها النَّبيُّ الكريم محمد بن عبد الله، صَفيُّ الخالق وحبيبُه، وقد حَرّم على الشيطان أن يطأ أرضها...

– حبيبُ الله وصفيّه؟

– نعم، هو آخر رسل السماء، وقد أكَّدَ بكل كلمة منه ختام الرسالة، وهو الشَّفيعُ لأمَّتِه ولجميع الأمم من بعده عندما نعبر الصِّراطَ فكل الناس تتشفع لنفسها إلّا هو يتشفَّعُ للخلائق أجمعين.

– وماذا أيضًا؟

– قال: (وسلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ وَيومَ يَموتُ وَيومَ يُبعَثُ حيًّا).

– هو مَنْ قالَ؟

– الناموس الأعلى حمل له هذا القول من الخالق الأحد.

وأضاف بعد أن لاحظ انشغالي بأفكاري:

– في أحدَ الأيام كان هناك رجلٌ زاهدٌ يعملَ في الاحتطاب، وكان هذا الرجل يُدعى بُرهانًا، وكان عناؤه الوحيد هو زوجته التي كانت تكبره بالعمر وهي لم ترضَ يومًا من الأيام بعيشتِها وزُهْدِ زوجِها، وكانت كلما جاء إلى بيتِه ليستريح أثقلته بالشِّجارِ، وصبّت عليه جامَّ غضبِها إذا تأخر بأحد واجبات البيت، يعمل كل اليوم في الاحتطاب وفي المساء يعود ليعمل في البيت، لم تكن تريدُ أن يتفكر في الرَّب لحظة واحدة، وكان يعتقد أن الشيطان في هذا البيت يسكن معهم، فقرر أن يبتعد عنه حيث يستطيع التعبّد والتنسُّك وحدَه، خرج من بيته إلى الجبال العالية وهناك وجد ثُلّةً من العبّاد يقيمون في مغارةٍ، ويقضون جُلّ وقتَهم في الصلاة والعبادة، التمس منهم أن يقبلوه بينهم، وقال: إن اسمه العبد الفقير وبعد مدة من الوقت، طلبوا منه أن يذهب ليملئ سلة القش بالماء من الجدول القريب، وكانوا قد اعتادوا جَلْبَ الماءِ بسلة القَشِّ التي لا يمكن أن تحمله، إنما تعبّدهم وإيمانهم جعلها تحمل نصف كمية الماء في كل مرة، نزلَ ووقفَ أمام الجدول ولم يعرف بمَ يدعون عندما يملؤونها، فقال:

– كما يقول إخوتي الزهّاد.

حَمَلَ السلة ممتلئة بالماء كغير عادتها، وصعد إليهم، اندهش الزُّهاد من أمره وقالوا له:

- ماذا قلتَ أيها الأخ الفقير؟

- قلتُ كما تقولون...

- نحن نقول: نستعين بصبر برهان الزاهد على ظُلْمِ زوجتِه.

أدرك برهان أن الشيطان لا يسكن حيث تكون الروح نقيةً، وإنما يسكن فينا، فإذا أردناه خَرَجَ من داخلنا، لا تبحث عنه في أي مكان بعيدًا عن ذاتك.

وقفتُ أمام التمثال، وباركتُ نفسي برسم إشارة الصليب أمام صدري:

بسم الأب والابن والروح القدس

خرجتُ من الكنيسة وأنا أصطحب معي خيطَ رائحة البخور القدسي، وعندما لمحتُ نور الشمس أخذت نفسًا عميقًا واخترت إحدى الطُّرقات، وبدأتُ بالمشي فيها علّني أكمل رحلتي هذه، فإني بحاجة لمعرفة الشيطان، بحاجة لخوض تجربته، فالنور والظلام ضدان متساويان لا يُعرف أحدهما بدون معرفة الآخر، مشيتُ وأنا أفكر بهذه الفكرة التي راحت ترنّم على مسامعي أسئلةً وجدتُها مُلحّةً في قُدومِها، ولكن سرعان ما غابت عن ذهني وتلاشت في فوضى أفكاري وخليط ألمٍ من آثار المسامير والسياط.

عندما أصبحتُ في سوقٍ لمدينةٍ كبيرة كانت الثلوج قد بدأت تُغطي الشوارع والمكانِ، وكانت أضواء القناديل والشموع تنعكس على ضباب الطُّرقات فتنشر خيمة من الظل الفاتح في الهواء، فالثلوج المنهمرة تتراكَمُ على أحجار الطريق المرصوفة، وبدت السوق كما لو أنها غرفة واحدة بكلٍ من فيها، احتوت كل المارة بنفس حالة الإحساس والشعور الساكن، توقْفتُ لحظاتٍ أمام أحد المطاعم، لم أكنْ أشعرُ بالجوع، ولكن أردت أن أقترب منه بعد أن رأيتُ رجلًا يركل فتاةً شِبْهَ عاريةٍ ويرميها على الأرض أمام الجميع، دُهِشْتُ لردِّ فعل الحضور البارد، هل كانت زوجته؟ خادمته؟ لصة حاولت سرقته؟

لم أميّز صلتهما إلّا بعد أن رأيتُ فتاةً تلبس نفسَ زِيِّها قد جلستْ إلى حِضْنِ رجلٍ يحتسي شرابًا أحمر داكن، عرفت هذا المكان إنه ملهى لبنات الليل.

- هل يمكن أن يكون الشيطان هنا؟

ولكن... الشيطان يقبع في أعماقِنا ولا يمكن أن نجدَه إلّا عندما نخرجه نحن بأيدينا، حَزَمْتُ أمري، وقررتُ إخراج الشيطان من داخلي هذه الليلة، دخلتُ الملهى فاستقبلتني فتاة باهرة الجمال ارتدت قميصًا شفافًا وقصيرًا أظهر ساقيها الشمعيتين وجسدها الأبيض بكامل تفاصيله، ولكن تلوّث وجهها بأثر لكمةٍ من شخصٍ تحت عينها وجرح عميق في شفتها السُّفلية جعلتني أبتعدُ عنها قليلًا،

عانقتني وأسْنَدَت جسدَها عليَّ، فعرفتُ أنها غير متوازنة، وأن الخمر قد ذَهَبَ بعقلِها، لامَسَت جسدي ببراعةٍ، غير اللمسات التي لامستني بها الفتاة في الزقاق هناك، فهذه لمسات تعرف كيف تُحرّك نار الشهوة بأي رجلٍ حتى لو كان ناسكًا، اقتربت مني لأستطيعَ مُشاهدةَ صدرِها وبطنِها من تحت الثوب، شعرتُ بأن النفور قد يقذفني إلى الخارج بأمتار، ولكن أحسستُ بأن الشيطان قد بدأ يتحرك داخلي لأن رغبتي المعاكسة لنفوري في الانفراد بها قد غالبتني، تقدَّمت إلى صاحب الحانة وقلتُ له: أريدها، فقال لي عشرة دراهم فضيّة، لم أكن أتوقَّع أن يطلب المال، فإنا لم أفكر فيه قط، ومع هذا مددتُ يدي إلى جيبي لا أعرف ماذا أفعل لأني لا أملك شيئًا من النقود، ولكن صعقتني رنّة القطع الفضية، أخرجتُها ونثرتُها على الطاولة فإذا هي عَشر قِطعٍ نقدية فِضيةٍ، عرفت من هذه العلامة أني قد وجدتُ الشيطان، صعدت معها إلى الغرفة في الطابق العلوي وكانت هناك أبواب كثيرة في الممر ووراء كل باب قصة من العربدة تُحاك بعتمة الليل ورائحة الخمور وصوت تأوُّهاتٍ لرجال مجرمين، وآلامٍ لفتياتٍ يقدمن أجسادَهُنَّ متحملاتِ الألم والإهانة والظلم والجَوْرَ مُقابِلَ النوم والطَّعام، دخلت معها الغُرفة وقد كانت صغيرة وفيها سرير ووعاء من الماء وشال مطويٌّ على السرير، كانت زجاجة الخمر موضوعة على الطاولة مع الكأسين الطويلتين، قلتُ لها:

- أغلقي الباب...

ابتسمتُ وأغلقتُ البابَ ونزعتَ عنها الرِّداءَ الذي لم يكن يُغطِّي شيئًا منها أصلًا، تراجَعتُ إلى الوراءِ وجَلستُ على السرير وأنا أنظر إلى جسدها وهي تقترب مني، وبدأتُ أغالبُ رغبتي في وُلوجِها...

- يجب أن أتحمَّل الوضع قليلًا ليخرج، أريده أن يأتيَ إلي، لا حاجة لي بفتاة تستعمل جسدها لتنفذ رغبات الآخرين ولا رغبة لي في استخدام جسدي الذي صُنع للعودة إلى الذات الإلهية في شيء لا يميزنا عن بهائم الأرض.

باتت قريبةً مني، حاولْتُ أن أمنعها من مباشرة الفعل الجنسي بعد أن بدأت تلتهمني بعينيها الجائعتين، فقلت لها أعطيني قليلًا من الوقت وحاولي أن تغريني من بعيد، فأنا أتمتع بهذا أكثر، تَعجَّبتُ من طلبي أن أقاوم نفسي في افتراسها فقد كان جسدها أمامي بكامل جماله، ابتعدتْ، وبدأت تُداعِبُ صَدْرَها بأصابع خبيرة وانتصبت حلمتاها، وأصبح لونهما داكنًا يُنذر بانفجار الشهوة منهما، وهي تنتظر مني الانقضاض عليها، وأنا أُجاهِدُ ليخرج... ماذا ينتظر فإن الشيطان قد يجتمع بين اثنين ويبدأ في إغوائهما حتى يقترفا الرذيلة معًا فيقول أنا بريء منهما...

اخرجْ... اخرجْ... فأنا بانتظارِكَ، هيا...

إذا كنتَ قد تحديتَ الخالق عندما خَلَقَ آدم فلماذا تخافُ الخروجَ الآن؟! هل أنت خائف من رؤيتي؟

بدأت الأضواء تخفُتُ وتَشعُّ، ولم أعدْ أرى الفتاةَ العاريةَ أو أسمعُ صوتَها، وكانت رائحةُ الخمرِ قد غاصت في القارورةِ والسرير أصبح خشنًا قاسيًا فعرفت أن علامة خروجه قد خانت، فجمعت أفكاري بشيءٍ واحد: لماذا يحاول حرق الروح بالجسد؟ لماذا؟

عادت حواسي للعمل ثانية، فقد كانت تتواتر في الحضور والغياب وبدأت أصابع الفتاة تزحف على جسدي وأنا مُستلقٍ على السرير أُشاهِدُ انفتاح بوابة الشيطان، وهي تعتقد أني سلّمت جسدي لها، تغيبُ الغرفة فأشعر بأنه قريب، ثم تعودُ تأوُّهاتُ الفتاة فوق جسدي...

لا أريد الانغماس في شهوةٍ تُذْهِبُ عني نقاء التجربة، فقط أُريدُه أن يخرج...

- اخرجْ... اخرجْ...

***

هأنا وحدي الآن، أجوس القفار والأماكن، المسكونة منها والخاوية التي لا يوجد فيها صافر نار، أشتمُّ رائحة المعصية تفوح من كل الأرجاء، لا تحتاج الأرض إلى طوفانٍ واحد، تحتاج في كل مطلع شمس إلى طوفان ليطهرها من رِجْسِها، لم أكن أفكر بهذه الغانية

القذرة، فقد حَرقت روحها بالمعصية وهي تعتقد أنها قريبة من الخالق رغم معصيتها، إنهم يشعروني بالضحك، يعيشون في الرذيلة كل الوقت وعندما يذكرون الخالق يخشعون، لا أريدهم، فهم من أتباعي، أريد هذا الطالب الذي قاومني أكثر من مرة، لكم ذكرني بغيرِه...

أذكر عندما كنت طاووسًا من الضياء أصنعه بكلتا يدي، أنشره في أرجاء الاتجاهات لتتكسّر شظاياهُ فوق الأرواح المُسبحة بحمد النور الإلهي...

لماذا أنكرت هذا الوجود وهذا النور؟

لماذا عصيتُ؟

لأني الأجمل والأبقى؟

لأني صانع الضياء وكل ما دوني هم أقل مني؟

من قبس النار وُجدتُ، ومن ضيائها عِشْتُ، وإليها سأعودُ، رفضتُ الانصياع لخالق النور والظلام، ولكن لا بأس بهذا فقد ذهبت عني الغمّة وموجة الكرب وحالة الضيق مع اتساع المسافة الوقتية بيننا، لم يكن عندها زمانٌ أو مكانٌ أو ظلامٌ أو نورٌ أو سماءٌ أو أرضٌ، لم يكن سوى الذات والأرواح الجوهرية المحلقة حولها تسبّح بحمدها، ولكنهم تحت مستواي ودوني في المرتبة...

نعم... أنا رأيتُ أن هذا النور سَيُخرجُ من التراب الذي لم يَخرج بعد ما هو أدنى مني، ولهذا رفضته واستنكرتُ من تلك الأرواح أن

تنصاعَ لأمرِه، ولكني رفضت وابتعدت عنه معتقدًا أن نوري سيُبقى عليَّ، ويا للمساكين الذين لحقوا بي وآمنوا بنوري! فهم لم يعرفوا أني سأخسر النور، ولم يقدروا على العودة بعد الإيمان بي.

وبابتعادي عن مركز ذاك النور بدأ ينسحب مني ضيائي رويدًا رويدًا، وراحت تنسلُّ خيوط النور إلى الأبد حتى أحاطتني العتمة فألفتها وانصاعت لأمري فالتفت حولي.

أستمدُّ سلطاني من أنفسهم وأرواحهم، فقد وجدتُ داخلهم كرسيًا لي أجلس عليه ساعة يسمحون لي، فإني من خليط أجسادهم، وعندما يسمحون لي بالجلوس على عرش قُلوبهم عندها فقط... لا انفكاك من سطوتي ولا انعتاق، إن سطوتي في الجسد كالمفترسات إن هاجت على صاحبها افترسته وأحالته ركُامًا، إن الرغبات والشهوات هي النار اللطيفة التي إذا تمكنت من النفس استعرت وحولت الروح إلى رمادٍ تذرُوه الرِّياح، لا فائدة منه.

فهمتُ هذه المعادلة، فرحتُ أغذي تلك النارَ ما استطعتُ، فذات ذكرى حين أخرجتهم من نعيم الفردوس، كانوا عُراةً لا ينظرون إلى أنفسهم بنظرة الجسد أو سلطة تلك النار، أمّا حين استطعت إشعال نارِهم نَظَرَ آدمُ إلى حواء للمرة الأولى نظرة شهوةٍ أثارت حواء بشوقٍ كبيرٍ.

وعندما خرجا أيضًا تتالت الأحداث وأنا موجود خارج نطاق الزمن أنتظر أن أفتك بهذه الأرواح إذ يتشكل الجسد، ولكن معاناتي الوحيدة هي معاندة جوهر الروح لطبيعة النار فيها، إني أُقدِّمُ لها كل ما هو لذيذ... رغبةً جسدية تُفضي إلى نشوةٍ تُغيرُ الأبعاد، لذةً في التمتع بالسلطة وانقياد العالم لها، متعةً في الثراء والعيش الباذخ وامتلاك ما هو ثمين ونادر، رخاء الجسد وراحته.

ومع كل ما كنتُ أقدم كانت تُعاندُني أرواحُ أولئك المؤمنين... لماذا يرفضون عطائي ويتمسكون بجوهرٍ نقيٍّ لا يمكن أن تلوثه عُروضي ودنياي؟

أشعر أحيانًا أني أشتاق إلى ذاك الانعتاق الذي تعيشُه هذه الأرواح والذي كنته يومًا غابرًا قبل الأيام، إنهم يشعرون بهذا الصفاء وهذه الموسيقا الربّانية الصادرة عن مصدر واحد، لتطمئن نفوسهم في الأثير الهائم مع النور.

اخترت هذه الدنيا كلها، لا فرق عندي إن كانت نهايتي فناء أم بقاء، ولكن أعرف أني غير نادمٍ، ربما اختارني الخالق لأكون عاصيًا فلا يُظْهِرُ الضِّدَّ إلّا الضِّدُّ، ولا يَظهر النورُ بدون ضياءٍ، ولا تخرج المعصيةُ إلّا من كَنَفِ الطاعة، ولا تأتي الطاعةُ إلّا من بعد المعصية...

إذًا أنا عاصٍ، ولكن معصيتي تنطوي على طاعةٍ، طاعة حريتي التي انتقيتُها لأكون لوسيفر صانع الضياء.

في بعض الأحيان يكون عطاء الثروة والسلطة للبشر هو أول طريق الخروج من النور إلى الظُّلمة - ظُلْمتي - ولكن معه هو كانت الثروة والسُّلطة هي طريقه ليتقرب إلى الله، لقد احترت في عبادته فهو غنيٌّ عن كل ما عند خالقه، يملك السلطة والمال والأولاد والنفوذ والجمال والزوجة الساحرة، ورغم هذا هو في حِمى النور، لا بدّ لي من معرفة السَّبيل لإخراجه، لا بدّ أن أجد السَّبيلَ، وسأبدأ في مخاطبته بشكل مباشر دون أن أظهر له بأي شكلٍ من الأشكال، أنثى جميلة أو مَلِكٍ مُقتدرٍ أو طِفْلٍ صغيرٍ أو عالِمٍ خبيرٍ، سأكلمه أنا ولا سواي، وأعتقد أنه الآن في غرفته يتعبَّد باريه الواحد.

- إلى متى؟ إلى متى ستبقى في هذه الدوامة من العبودية؟

- عبودية الروح لخالقها أرفع صفات العبد والخضوع للفناء في الهوى الروحي أزكى أنواع الحب.

- لقد امتلكتَ ثرواتٍ قد تُغنيك عن العبودية هذه، فانطلق إلى المتعة والتَّرَفِ، فلو أنك كنتَ لا تستحقها لما حصلتَ عليها.

- لا فرق عندي بين جبلٍ من الذهب وبين حِفنةٍ من التراب.

- وإذا أخبرتُك أن رزقَك في طريقِه إلى الزوال، هل ستتوقف عن العبودية وتسعى للذّودِ عنه؟

قلتُ هذه العبارة، واعتقدتُ أنه سيتحرَّكُ أو سيهتمُّ لما أقول، ولكنه لم يرفع نظره ولم يكترث، وهذا ما حرّك غيظي وبطشي.

– أتعتقدُ أني أُمازِحُكَ أيها العبد؟ سأعود إليك قريبًا...

خرجتُ وأنا عازمٌ على مَحْقِ ثروته وغناهُ الذي امتدَّ على أرض واسعة من جبل العرب إلى اليمن، أمرتُ أن تُحرق أرضُه، وأن تَفنى مَنابِعُ رِزقِه، وتُعطَّلُ مَصالِحُ عَمله، لقد أمرتُ أن يَحْدُثَ فحَدَثَ وأنا بغاية الشوق لرؤيَته يَنْدُبُ رِزْقَه ومالَه، فدخلتْ عليه زوجتُه وفي صَدرِها غُصَّةٌ دامِيةٌ على ما آل إليه حالهم بعد أن كانت الدنيا مُقبلةً عليهم أدبرت عنهم وولت، لم تستطع مَنْعَ نفسِها الحديثَ ببعض العُنف، فقد كانت الدنيا لّما تزل تتربَّعُ فوق عَرْشِ صَدرِها، كان الغيظُ والغضب قد راحا يفعلان فعل الرياح التي تحتُّ الصخور العارية، وقد شعرَ هو بحالتها فنظر إليها وقال لها:

– اجلسي بجانبي أكلمك...

جلسَت وهي تكتم ما يمور بداخل نفسها من تخالطات الدنيا وما فيها، فإن حبُّ الدنيا إذا تملّك النفوسَ قَهَرَها وأخْمَدَ نُورَ الحِكمةِ فيها، ومَنْ يريد ترك الدنيا وجب عليه نزعها من قلبِه نزعًا ولا يزهد العبد بدنياه إلّا إذا زَهَدَ بصفاتِه الجسدية قبلًا.

– جاء في أحد الأيام إلى سليمان بن داود النبي رجلان من الزُّهّاد الذين هجروا الدنيا ومتاعها، وكان ابن داود وَفيرَ الحِكمة، قليل

الكلام، بَهِيَّ الطَّلعة، تتسابَقُ ضاريات الأرض للجلوس عند قدميه، قالا له:

– جئنا إليك نشتكي إبليس، فإنه يلهينا عن عبادتنا.

– كيف يلهيكما عن عبادتكما وأنتما قد خلّفتما الدنيا وراءكما؟

قال النبي هذه الكلمة وأمر إلى الظلام ليأتي بإبليس إليه، مَثَلَ إبليس بين يديه بمنظره القبيح الذي تشمئزُّ له الأنفس، وقال له:

– لماذا لا تترك هؤلاء العبّاد ودينهم؟ ما شأنك بهم؟

فقال إبليس بلهجة تختلط بالثقة:

– يا نبي الله فليتركوا لي الدنيا لأترك لهم الدين.

عندما سمعت رحمة هذه القصة ارتعدت من الخشية والخشوع وفاضت دموعها لتغسل بقايا وركام الدنيا في قلبها، نهضت قبَّلت يدي زوجها وقالت له:

– لا دنيا مع الدين، فالانعتاقُ الكُليُّ هو انعتاقٌ من المادة مهما تكن، سأسعى لهذا الانعتاق الروحي ما حييت.

كنتُ منشغلًا ببعض الأمور التي أحيكها لهذا الرَّجُلِ وزوجته، دخلت عليه وأنا مُبتهجٌ بفعلي، وقلت له:

– لقد جئتُك بأخبارٍ سيئة...

- إن الأخبار السيئة لا تدخل إلى رأسي لأن الخالق - عزّ وعلا - مَنْ يُدبِّرُ أمري.

- لقد ضاعت ثروتُك وانتهتْ أرزاقُك ونفقتْ دوابُّك وجاع أهل بيتك في هذه الفترة التي كنتَ فيها عبدًا لخالقٍ لا تراهُ.

- إنْ رؤية الخالق تبدأ من داخل الرُّوح لتخرج إلى جميع حواسِّك.

- أنا أتكلم عن رزقك وأموالك..

- وأنا أتكلم عن الخالد الباقي لا عن الحطام الزائل.

فَشِلَت مُحاولتي الأولى... ولكن لماذا لم يكترث؟ هل يعتقد أن أولاده الكُثر يستطيعون إعادة الثروة والسلطان؟ هل يظن أني تاركهم يمشون على الأرض وقد أثار غيظي...فليحمِ رَبُّه أولادَه.

- ها قد جئتُك بعد هذه الغيبة ولم ألاحظ أنك تأثرت بفقدان ثروتك الطائلة ومالك الكثير.

- لقد وقفتُ بباب خالقي ولم أطلب إليهِ إلّا الرحمة وقبول طاعتي، وهو مالك السماء والأرض وما بينهما، فهل أتأثر بمال فانٍ فناء الثلج الأبيض.

- لقد حملت لك خبرًا سيئًا جدًّا، وستسمع عويل النساء في الخارج قبل أن أنْطِقَ به، فالموت لا عودة منه، ولا أعتقد أن أولادك الكُثر سيعودون من الموت لو طلبت إلى باريك هذا.

- لله ما أعطى من الأرواح ولله ما أخذ منها.

شعرتُ أني أفقدُ أعصابي أمام جَلَدِه، لم تسقط من جفونه دمعةٌ ولم يُناجِ خالقَه إلّا بالشُّكرِ والحمد، ولكن تحوَّلَ غيظي إلى هدوءٍ عندما قررتُ أن أسأله عن سرِّ صَمْته.

- لأن هذا الصمتَ ينطوي على عبادة وطاعة، والطاعة هي التذلُّل والتقرُّب من خالق الرُّوح وصاحبِها، ولا أعتقد أن الحكمة الإلهية تعمل بشيءٍ من العبث أو الخطأ، فحاشا للذات أن تخطئَ أو تَزِلَ.

- ألا تعترفَ بقُدرتي فأُعيدَ لك ما أخذتُه منك؟

- لا أعترف إلا بقدرة الذي لا قُدرةَ فوق قدرته.

خرجت من عنده وأنا أستشيط غضبًا، ما هذا القبول الروحي للقدر! لا بدّ أن آخذ شيئًا من عقله علّه يركع لي.

- لم أستطع المساس بعقلِك، لماذا هو محجوب عني ولا أقدر عليه؟ أخبرني.

- لأنه إذا ضاع العقل ضاع اليقينُ وضاعتِ الحجة في العبادة، فلا سلطة لك على عقل وَعَى الخالق ووحَّدَه.

- حسنًا... فإذا ذهبت الصِّحَّةُ يبقى العقل؟

سألته هذا السؤال الخبيث وأنا أعرف أنه سيدرك غايتي، ولكنه كعادته هَزَّ رأسه كأن الأمر لا يعنيه، فخرجت وأنا أُحيك من شُرور عتمتي نوعًا من المرض والسَّقَم لا يتحمله مخلوق، من غير الاقتراب من روحه فلا أقدر عليها ودون المساس بعقلهِ فلا سُلْطَةَ لي فيه، وبدأتُ أعمل في نثر سُمّي على جسده ليلًا ونهارًا ولم أكن مُستعجلًا لأرى النتائج تَحْدُثُ.

بدأت أيامه تمرُّ وهو يعاني المرضَ والضعفَ في جسدِه، فبعد أن كانت الثروة والأولاد والعشيرة حوله وكان بصحة جيدة، انتهى كل شيءٍ ولا أحد يحول بين أمري وغضبي وبينه، ولكن لماذا أَفْتكُ بهذا العبدَ وباريه لا يكترث؟! هل هي تجربةٌ وعِبرةٌ وحُجّةٌ للعّبادِ من بعدِه؟ الأمر سيَّان، سأُكمل ما عزمت عليه، فإن كَفر هذا العبد بربّه وصلت إلى غايتي وهدفي ...

دَخلتْ "رحمةُ" إلى زوجِها بعد أن أقعده المرضُ في السرير وحده لا أحد يَعودهُ، ليس في ذاك البيت الكبير الرَّحب الواسع وإنما في كوخٍ على أطراف القرية فيه غرفة وحمّام قديم وبعض الفُرش من السجّاد الخَشنِ المصنوع من شعر الماعز، تَقدّمتْ وهي تحمل في يدِها

وعاءَ حساءٍ، وكان آخر ما لديهم من طعام ومؤونة. اقتربتْ ووضعت الطعامَ على فِراشِه وهي تنظر إليه بعيني رحمة وقالت له:

– هذا طعامُك اليوم، أرجو أن يُخفِّفَ من ألمك، وأن تُلاقي فيه الرَّاحةَ والسَّكينةَ بعد هذه الليالي التي مضت وأنت تتجرَّعُ الألمَ والمرضَ.

هزَّ رأسَه كعادتِه بالرضى والقبول، وهذا ما كان يُثيرُ حَنقي ولا أعتقد أن غضبي وحنقي قد وصلا إلى هذا الحدِّ سابقًا، رحتُ أبثُّ الأفكار في رأس زوجتِه رحمة لتتركه كما تركه أقرباؤه وأَتباعُه، ولكن إيمانُها به منعني هذا، وكانت تكشف ألاعيبي بقولها:

– أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم...

ألا يكفيكِ أنيَ لم أقترب منك بمرضٍ أو بسقم؟ ولكن لا بأس عندما أفرغ من زوجك سأعود لأسومك المرض والألم...

في الصباح اقتربتْ منه وهو نائم لتضع عليه غطاءه الذي انحسر عن كتفيه، وقد فاضت الدموع من عينيها عندما رأت أن قدميه قد تعفّنتا وبدأت الديدان تتحرك فيهما، انفطر قلبُها من هذا المنظر وقد نظرت إليه فإذ به نائم وقد بدت ملامح السماحة على وجهه، لحيته البيضاء التي يشوبُها السوادُ والابتسامة التي لم تنكمش لحظة واحدة، لم يسعفها عقلُها الذي فاضت أفكارُه بفوضى عارمة بأي فكرة، وبقيت واقفة تبكي بصمتٍ حتى استفاق، فحجبت دموعَها عنه

وغطّت قدميه بسرعة، نظر إليها وقال وهو يبتسم وقد بدا الألم في صوته المُتهدّج، ولكنه لم يَبُحْ به، وفي هذه اللحظة اعتقدت أني وصلت إلى غايتي.

– لماذا تبكين يا رحمة؟ هل خانتك ثقتُك بباريك؟ أجلسي بقربي لأُحدِّثك قليلًا؛ فقد اشتقتُ لأن أتجاذَبَ معك خُيوطَ السَّمَر.

جلست بجانبه ببطءٍ خوفًا من أن تهزّه فيثور أَلُمه... فقال:

– مرَّ نبي من أنبياء الأرض على أحد الناس، وقد قال لهم: إن الله بين أضلعنا أحبوه ليحبكم، فسأله أحدهم:

– ماذا سنكسب من حُبِّ الله؟

فقال له:

– الحبَّ... فقط الحبَّ....

ومشى فوق ماء البحيرة، فقال له الرجل:

– كيف مشيتَ فوق الماء؟

– بالصبر على النفس...

بعد عام عاد النبي ومشى على الماء، فلحقه الرجل ومشى على الماء خلفه وهو يقول له: انتظرني، أُريدُ هذا الحب... فقال له النبي وهو مُندهشٌ:

- ماذا فعلتَ مُذْ تركتُك إلى اليوم؟

- اشتريتُ الصَّبرَ المُرَّ وأكلته عامًا كاملًا... ألم تقل: إن الصبر ما جعلك تمشي على الماء؟

فقال له وهو يبتسم:

- مَنْ نجّاك وأدخلك في حبِّ الله صَبَّرَك على الصبر.

في الحياة مَنْ هُم لا يستحقونها، يقلعون المُقل الحلوة، ويدسّون أصابعهم السّامة في عجينها، ويسمّمون بلسانِهم كل مَن سمعهم، ويعملون لقَتْلِ البراعم قبل تفتُّحِها، وليدفنوا الأحياء قبل موتهم، وليذروا القمح ويخبزوا الطين بدلًا منه، والبعض كالرِّيح، يعتقد أنه سيأخذ معه كل شيء، ولكن الريح ستأخذ وتمضي بما تقدر على حمله فقط، فالعواصف لا تحمل الجبال بل الغُبار، والأمواج لا ترتفع وتتكسر عند الشاطئ.

احترقت أعصابي، وانفتحت أبواب جحيمٍ في رأسي تجاه ذاك الشخص العنيد، فتحركتْ موجاتُ الألم في جسدِه كلما صرخت وأمرت بها وانتظرت لأستمتع بصوت أنينه.

نظرتْ رحمةُ إلى وجهه، ورأته يتصبَّبُ عرقًا، فعلمت أنه يُقاسي تحت وطأة الألم، فحاولتْ أن توقفه عن الكلام ليرتاح ولكنه قال لها:

- لا عليكِ فأنا بخير ما دامت روحي تطوفُ في تسبيح الباري وتحميدِه، وما زال عقلي يدرك الحقيقة ويقرُّ بها.

مَرَّت الأيام وقد أَمرتْ نفوس الناس في القرية أن يخرجوا عليه ويطردوه وزوجته، فقد ضاق صدري به، وبدأتُ أشعر بانهزامي، ولكن الجولات قادمة ولا تزال الحرب سجالًا، قَرَعَ أهلُ القرية الباب بعنفٍ وهياجٍ وعندما فتحتْ رحمةُ الباب قالوا لها بنبرةٍ حاقدة:

- اخرجي وزوجَك المُتعفِّنَ من هذه القرية، ولا نراكم بعد اليوم، فقد وَصَلتْ رائحةُ عَفَنِه وقَذارته إلى بيوتِنا، ونخشى على أطفالنا من أن تنتقل لهم عدوى مرضِه هذا.

أغلقتِ البابَ واقتربتْ منه وقد احتارت بما ستقوله، فهو نائم ومُتعَبٌ، ويبدو عليه الإجهاد، نَظَرَ إليها بعد أن استفاقَ وقال لها:

- هيا يا زوجتي الرحيمة، احمليني في تلك السلة الصغيرة، فأنتِ تعرفين أني غير قادرٍ على المشي، وإن وزني غدًا خفيفًا بعد ما أصابني.

قال هذه الجملة وهو يُطلِقُ ضحكةً بسيطةً كنوعٍ من الدُّعابة، ابتسمتْ رحمةُ، ولكن غصّت ببكاءٍ حادٍّ لم تستطع مَنْعَ نفسَها منه، فقال لها:

- إن البكاء هو غسيل الرُّوح، وتطهير النَّفْسِ، ولكن أرجو أن يكون بكاؤك خُشوعًا وشوقًا، وليس أسًى على فوات الدنيا.

هزّت رأسها وهي تضعه في السلة الصغيرة وتلفُّه بوشاحٍ صوفيٍّ عتيقٍ، حملته على ظَهرِها ومَضَتْ من الباب، وارتقت الطريقَ وراحت تمشي في تلك الليلة، وهو يُرتِّلُ على أسماعِها تراتيل لمناجاة خالقه بصوتٍ عذبٍ يترقرقُ كينبوع الماء الصافي، ورويدًا رويدًا بدأت تشعرُ بالأمان، والضّيق الذي كان يخنقُها ذَهَبَ وتلاشى كضبابٍ سَحبتْهُ الرِّياحُ.

راحتْ ترتقي الجبلَ الأخشب في عتمة الليل، ولم أستطع أن أزرعَ فيها الخوف وهي تمشي فقد كانت تراتيلُه تعوقني عن شيطانيتي، انتظرتُ يومًا جديدًا علّي أَجدَ ما أفعله بهما.

- لقد وَجَدّتُ مغارةً صغيرةً هنا ويبدو لي أنها جيدة وهي في طريقٍ يمرُّ فيه الناس إلى البلدة المجاورة فهذا يدعو إلى الأُنْسِ نوعًا ما.

قالت رحمةُ هذه الكلمات وهي تتنفسُ بصعوبةٍ لصعودها الجبل، وقد وافقها على اللُّجوء لهذا المكان، وهو يعلم أنه لن يكون بمنأى عني وعن أمري.

مررتُ في صباح أحد الأيام وأنا أتشبّه بزي رجلٍ ريفي من أمام المغارة فلعله يفضي إليّ بشيءٍ كالذي يبطنه أمامي، رميتُ عليه الوقت وعبرت ولكنه لم يجبني، وهنا انتابني خوفٌ أنه قد يعرفني، ولكن عندما ابتعدت عنه أجابني بأفضل من سلامي، انفرجت أساريري ورجعتُ لأتجاذَبَ معه أطراف حديثٍ قد يُوصلني إلى بُغيتي وخاصة

أن زوجته نزلت لتتوسَّلَ طِعامًا لها وله، فاقتربت منه وجُلت ببصري لأراهُ يَقرأُ تَراتيلَ ويتعبّد إلى باريه، فقلتُ له:

– رأيتُ مِنْكَ العجبَ... لماذا لم تجبني بالسلام فورًا وانتظرت ريثما ابتعدت عنك؟ هل أصابك وهمٌ في عقلك فلم تُميِّزني؟

– لا أبدًا، فقد لمحتُك وهممْتُ أن أُبادِلَك السلامَ، ولكني لستُ أنا مَنْ يقطع أرزاق المخلوقات التي قسمها لها خالقها وخالقي.

لم أفهم ما يقولُ، وحاولتُ أن أستوعِبَ كلامَه، وقلت له:

– أي أرزاقٍ وأنتَ لا تملك شيئًا ولا تستطيع رفع الضّر عنك؟

– ثمة دودة تأكل من لساني وقد استساغت أن تتغذى مني وآمنت أني سأقدمه عن طِيبِ خاطرٍ، فهل يجوز لي أن أقطعَ رِزقَها بعد أن أَمِنَتْ عليه؟ لو تكلمت لكانت سقطت... ولكني انتظرها ريثما تنتهي.

عندما جاوبني بهذه الطريقة بدأت الألوان الحمراء تتلظّى حولي وراحت رائحة جلدي تطفح في المكان حتى أنها غطت على رائحة العفن حولي، نظر إليّ وهو يضحك، وقد ابتعدتُ بصراخ وخوار رهيبٍ هزّ الجبل حولي وسمعتُه يقول لي بصوتٍ مريضٍ:

– لن تفعل بي إلا ما قَدَّرَهُ اللهُ لي...

انحدرتُ بسرعة إلى القرية لأبحث عن رحمة زوجته، فقد جالت ببالي فكرة لا أعتقده يستطيع الصَّبرَ عليها، تمثّلتُ بشكل امرأة يهودية تبيع الخُبْزَ، وأغويت برائحته رحمةَ لتقترب مني، وقفتْ أمامي وهي تنظرُ وقد مَنَعَها خَجلُها أن تتسول رغيفًا من الخبز لها ولزوجها، قلت لها بصوتٍ رخيمٍ:

– اقتربي يا صبية، لا تُراعي، اقتربي...

اقتربتْ وهي تنظر إليّ وأنا حَذِرٌ لعدم معرفتي، فهي تعرف أني سبب ما حلّ بهما في السنين السبع هذه.

– هل تريدين الخُبْزَ؟

أومأت بخجلٍ وانكسارٍ برأسِها وقالت:

– ولكني لا أملك ثَمَنَه...

فقلت لها:

– يا عزيزتي، ومن قال لك: إنك لا تملكين ثمنه؟! فالثمن معك دائمًا.

عندها نظرت إليّ نظرةً شَرِسَةً قلبت ملامح ضعفها وكأنها فهمت مُبتغاي أني أريد استغلال جسدَها، ولكيلا تنفرَ مني غَيَّرتُ فكرتي فورًا فأردفتُ:

– لا... لا... لا أريد منك أي شيء يمسُّ الشَّرفَ، اطمئني فأنا امرأة كما أنت.

عادت نظرتها إلى طبيعتها وتلاشى وَجْهُ اللَّبؤةِ عن ملامحها وقالت:

– ما المُقابل؟

– شعرك الجميل هذا... أريده...

تمنَّعت قليلًا لأن زوجها يحب هذا الشعر كثيرًا، ولكني بدأت أنْثُرُ صُورَ زوجها الجائع على رأسِها، ونكهة الخبز بالزبدة لتفكر فيه...

– قَبِلْتُ... أعطيني الخُبزَ وخُذي شعري...

عادت وهي تحمل معها رغيفين من الخبز، وفيها بريق فَرَحٍ يخالِطُه الخَجَلُ من فَعْلَتِها، وقبل أن ينظر إليها قال لها:

– دَخَلَ رجلُ إلى بلاط سليمان بن داود، وجلس في مجلسِه، ولكنه ارتاب لأمر رجلٍ غريبٍ يبدو عليه الهَيبةُ والوقارُ، فكان الرجل ينظر إلى الغريب فترتعدُ فرائصُه خوفًا ورهبةً، ويحاول تجنُّبَه أو عدم النظر إليه، ولم يستطع الابتعاد عن الخوف والقلق، والآخر يُبادِلُه نظرات دَهْشَةٍ واستنكارٍ، خرج من المجلس وقد ضاقت به الأرضُ باتساعِها، وبعد قليلٍ من الوقت دَخَلَ إلى سليمان بن داود وقال له:

– مَنْ ذاك الغريب ذو الوقار والهيبة الذي كان يُجالِسُك في المجلس صباحًا، فأنا لم أُصادِفْهُ قبلًا؟

– لا... لا... لا أريد منك أي شيء يمسُّ الشَّرفَ، اطمئني فأنا امرأة كما أنتِ.

عادت نظرتها إلى طبيعتها وتلاشى وَجْهُ اللّبؤةِ عن ملامحها وقالت:

– ما المُقابل؟

– شعرك الجميل هذا... أريده...

تمنَّعت قليلًا لأن زوجها يحب هذا الشعر كثيرًا، ولكني بدأت أنْثُرُ صُورَ زوجها الجائع على رأسِها، ونكهة الخبز بالزبدة لتفكر فيه...

– قَبِلْتُ... أعطيني الخُبزَ وخُذي شعري...

عادت وهي تحمل معها رغيفين من الخبز، وفيها بريق فَرَحٍ يخالِطُه الخَجَلُ من فَعْلَتِها، وقبل أن ينظر إليها قال لها:

– دَخَلَ رجلُ إلى بلاط سليمان بن داود، وجلس في مجلسِه، ولكنه ارتاب لأمر رجلٍ غريبٍ يبدو عليه الهَيبةُ والوقارُ، فكان الرجل ينظر إلى الغريب فترتعدُ فرائصُه خوفًا ورهبةً، ويحاول تجنُّبَه أو عدم النظر إليه، ولم يستطع الابتعاد عن الخوف والقلق، والآخر يُبادِلُه نظراتِ دَهْشَةٍ واستنكارٍ، خرج من المجلس وقد ضاقت به الأرضُ باتساعِها، وبعد قليلٍ من الوقت دَخَلَ إلى سليمان بن داود وقال له:

– مَنْ ذاك الغريب ذو الوقار والهيبة الذي كان يُجالِسُك في المجلس صباحًا، فأنا لم أُصادِفْهُ قبلًا؟

- إنه صديقٌ قديمٌ جاء لزيارتي.

- لم أَرَهُ غير مرةٍ يبدو عليه أنه مِنْ عِلْيَة القومِ.

- ما لَكَ وله؟

- لقد أخافني وأشعر أني سأُصابَ بخطرٍ بقُربي منه، شعرتُ برائحة المقابر عندما نظرتُ إلى وجهِه، ألتمِسُ منك أن تأمُرَ بِساطَ الرِّيح ليأخذني إلى الهند، وعندما تغيب الشمسُ سأعودُ بسرعةٍ.

- لن أسألك: لماذا؟ ولكن لك ما تشاءُ...اذهبْ فالبِساطُ بانتظارِك.

دخل الغريب إلى سليمان وقال له بدهْشَةٍ:

- أين الرجل الذي دخل مجلسك وخرج منه بسرعةٍ؟

- لماذا تسألني عنه؟

- لأني اندهشتُ من وجوده هنا في بلاطِكَ في القُدس.

- ولماذا دُهِشْتَ؟

+ أنا موعودٌ بأن أقبض رُوحَه في الهند بعد ساعةٍ، فلماذا هو هِنا؟

ابتسم النبي سليمان وقال له:

- اذهبْ فقد سَبَقَكَ إلى مكانٍ وُعدتَ به.

لقد كان هذا الرجل هو ملك الموت مُتنكرًا بزيَ رجلٍ في مجلس سليمان، وكان ذاك الرجل قد وُعد بالموت في مكان وساعة معينة، فلا أحد يحصل على شيء لم يُكتب له، عُودي بالخبز وأحضري شعرك يا رحمة...

– ولكنها قد لا تُعيدُه...

– كلا... فلا قِسْمةَ لنا بالخبز ولا قِسمةَ لها بشعرِك... حُرِّم علينا أكلُ خُبزِها هذا...

لم أستطع الهُروبَ من زِيِّ المرأة اليهودية، وللمرة الأولى أشعر أن هناك قوة أكبر مني توجهّني وتقودُني، وما هي إلا لحظاتٌ حتى أقبلتْ رحمةُ تُريدَ الشَّعْرَ، لم أستطعْ مُجادلتَها، فقد سُلِبَتْ قُدرتِي مني، أعطيتُها الشَّعْرَ، وأخذتُ الخُبْزَ الذي تحوّل إلى طينٍ، وعندما غابت بين الناسِ، عزمتُ على الذّهابِ لِقَتْله علّني أتخلَّصَ من هذا الكابوس الذي رافقني سَبْعَ سنين.

قبل أن أَصِلَ إليه بقليلِ رأيت ثلاثة يقتربون منه، قد عرفتُهم إنهم من سكان الفردوس، أرسلتْهُم الذَّاتُ الإلهيةُ إليه، عندها عرفتُ أني انهزمتُ أمامه للأبد، فاختبأتُ لئلّا يروني، وقفوا بمحاذاته وقالوا له:

– ألم تتعبْ من مرضِك هذا؟

– لو أني صاحبُ الأمرِ لتغيَّرَ حالي ولكني عبدٌ ذليلٌ لصاحبِ الأمر والتنفيذ، أُطيعُ بمحبةٍ وقبولٍ.

– وهل تعتقد أنَ ما جرى لك هو نوعٌ من الرحمة؟

– لا أنتظر من المعبود ثوابًا ولا أخشى عِقابًا... فهو المعبود وله الحمدُ الخالصُ لنعمةِ وُجوده.

– خُذْ واشربْ هذا الماءَ...

عندما ناولوه الماءَ رأيته يَشعُّ بين أيديهم، وعرفتُ أنها نِهايةَ سُلطتي عليه، ومضيتُ في اختبائي كيلا يجدني عندما يشربُها، لحظات ابتلت عُروقُه بماء الذات، فانتفض المرض والديدان عن جسده كما تنتفضُ أوراقُ الشجرِ اليابسةِ في مهبّ الريح، نَهَضَ واستقامَ وقد عاد كما كان، لا بل أكثر رونقًا وشبابًا، وعندما رأيتُه عَلِمْتُ مقْدارَ المحنة التي أنزلتُها بِهِ، وكنتُ قد أمرتُ أن يموتَ في هذه اللحظات، ولكنَّ أوامري لم تُنَفذْ وارتدَّت إليَّ كصدًى أجوف فارغ.

اقتربتْ رحمةُ وفي يدها لفةَ شَعْرِها المقصوص، لمحتْ أربعةَ رجال من بعيد، لم تكترث فاقتربت من المغارة ولم تجد السلة أمامها، هُرِعَت إلى الداخل فوجدتُها فارغة، ركضتْ وهي تبحثُ عن زوجِها المريض هيستيريا، وصوتُها يجهشُ بالبكاءِ الخَشِنِ، وراحت تتقلب بين الأرجاء القريبة علّها تَجِدُهُ، قال لها أحد الرجال:

– اقتربي...

وعندما لاحظت هَيبتَهم ووقارَهُم وقفت أمامهم وهي تبكي بعُمقٍ وهدوء.

– هل تبحثين عن زوجك؟

– نعم..

– هل أنت خائفةٌ عليه؟

– نعم.. فهو مريضٌ عليلٌ

– ممَّ تخافين؟

– أن يكون قد مسَّه ضُرٌّ أو أن يكون قد افترسَهُ أحدُ الوحوش.

– عندما قَدِمْتما إلى هنا ألم تجدي في المغارة نَبْعَ ماءٍ؟

– بلى...

– إذًا هذه رحمة من باريكم..

– نعم...

– ما الذي في يدك؟

– إنه شعري المقصوص لقد أعدتُّهُ.

– أعطيني إياه...

وَضع الرجل لُعابه عليه، وسَمَّى باسم اللّٰه، ووضعه فوق رأسِها فالتصَقَ من جديد، عندها شعرت بأن في الأمر ما هو فوق الطبيعة.

– هل تذكرين زوجَك كيف كان قبل مِحنته؟

– لقد كان أيام عِزِه مُشابهًا لهذا الرجل بينكم.

اقترب الرجل الذي دلت عليه وقال لها:

– بماذا كنتِ تُميِّزينَ زَوجَك؟

– كانت لديه ثلاثُ شعراتٍ ذهبية اللَّون في أعلا صدرِه.

تقدَّمَ الرجلُ، وكَشَفَ لها عن صَدْرِه لترى الشَّعرات الثلاث، وعندها ركعت أمامه وهي تعرف أنه من سكان الفِردوس، فقال لها:

– انهضي، وبارك الله فيكي والله لن تمسَّكِ النارُ... فإن بيتي وبيتك في الفردوس قد عَمُرَ برحمة الله ومحبته.

نَظَرَ إليَّ وأنا مُختبئٌ في مكاني وهو يبتعد وزوجتُه مع الرَّكبِ وقد كانت السماء قد أظلمت، والأجواء بدت مُوحشةً كئيبةً، وشعرت بأني أفتقدُ ذاك الرجل الذي قَهَرَني بعزْمِه وإيمانِه مع زوجة ضعيفةٍ مِسكينةٍ...

أدركتُ أن هناك قوةً تَفوقُني، هي التي طردتني من الفردوس وهي التي سحبت مني خيوط النور، لكن لا بأس بهذا، فأنا في هذه الدنيا مَلِكٌ من مُلوكِها، بل أنا مَلِكُ المُلوك، وسأُغويهم إلى يومٍ فيه

يبعثون، فقد علمتُ أن الرُّوحَ كانت في بؤرةِ النُّور في مكانِها المجيد تسبّح وتطوف، النُّورُ وقد سكنت إليها النَّفسُ، وهي برحلتها تسعى إلى العودة إلى ذاك السُّكونُ وذاك التَّسبيحُ ...

ولكنَّ جهنمَ ستُرافِقُهم إلى أن يَصِلَ إلى مُبتغاهُ النَّقيِّ بينهم فقط... النَّقيِّ...

فتحتُ عيني بعد أن سبحتُ في عوالمٍ لا حدَّ لها، وأنا أشعرُ بغضب الشيطان يلوك رأسي وأفكاري، ولم تُبارِحْ صورةُ الرجل وزوجته مُخيلتي، بدت الغرفةُ مُعتمةً يزينها قنديلٌ يرسل الضوء الخفيف ورائحة العطر تفوح من حولي وأنا أشعر بأن جسدي يَهتزُّ، وعندما فتحت عيني واستعدت وعيي عرفتُ أني عدتُ إلى فتاة الليل تلك، فقد كانت تجلس بجانبي وهي تحاولُ إيقاظي من غيبوبتي، لمحتها عاريةً وجسدُها أمامي ملامسٌ جسدي، شعرتُ بأني في مكان خطأ وفي وقت خطأ... أبعدتُها عني ونهضتُ لأفتح الباب وأُسابِقُ درجات السلم إلى خارج الحانة، فقد كانت محرقة قد أوشكت على حَرْقِ روحي وخَبوِ شمعة النُّورِ في داخلي.



الباب الخامس

"مَا مِنْ شَخْصٍ تَكَّبْر أَو تَجَبَّر إلّا لذِلّةٍ وَجَدَها في نَفْسِهِ".

ابن رشد



عِنْدَمَا لفحتني مَوجةُ الصَّقيعِ في الخارج أدركتُ أني بأمانٍ، فقد خرجتُ من دوامة كنتُ قد بدأتُ أغْرقُ فيها لولا ذاك النبيُّ وزوجتُه، لقد عرفتُ ما الظُّلمةُ؟ وما النُّورُ؟ وعرفتُ كيف تسمو النفوسُ والأرواحُ؟ وكيف تغرقُ وتنحطُّ؟ مشيتُ وقد كان الليل أوشك على نهايته، وكانت العتمة قد اشتدت انعقادًا، فهذه اللحظات أشدُّ ساعات الليل ظُلمةً، مَخاضُ ما قبل الفجر، كل نِهايةٍ مُظلمةٍ هي ولادةٌ لبدايةٍ مُشرقة، مَشيتُ في طريقي ولم أكن أشعر بالمكان قط، وفي أثناء مسيري رحتُ أتَّصِلُ بالمعبد وأنا أُردِّدُ في داخلي "آووووم" حتى أستطيعَ الوُصولَ إلى ترنيمات الذبذبات الكونية، فقد امتلأت رُوحي بُعدًا بعد ما رأيتُه في هذه المُدَّة...

وجدتُ بابًا من الأبواب العالية وكأنه كان مبنيًّا من صخورٍ أزليةٍ ضخمةٍ، لدرجة أن الضباب يحيق بأعاليه، وقد كان مكانه في

هذا الأمكنة غير منطقي، تقدمتُ إليه ولمحتُ النُّورَ يتسلَّلُ من أخشابه وشُقوقِه وكأنه ضوءُ النهار، التفتُّ حولي فتأكدتُ أني في الهَزيعِ الأخير من الليل، ولكن الأصوات في الداخل كانت رهيبةً وهتافها مُرتفعٌ، عرفت أنها تجربةٌ لا بدّ لي منها... دفعتُ البابَ ودخلتُ وأنا لا أرى أي شيءٍ من شِدَّةِ النُّورِ الوهّاج، وبعد قليلٍ وجدتُ نفسي في فوضًى بين الناس وأنا على مُدرّجٍ رومانيٍّ كبيرٍ، والناس حولي يرتدون الأزياء الرومانية القديمة وهم يهتفون لعودة أحدِهم مع جيشِه أو حاشيتِه... لا أعرفُ، اقتربتُ من أحدِهم كان ذا شعرٍ أبيضَ مُجعّدٍ، ويرتدي ثوبًا أبيض اللّونِ وعليه شالٌ أحمر بلون الكبد، سألتُه ما عمّا يجري...

– ما دهاك؟ ألم ترَ الإمبراطور وقد حضر مع جيشه؟ انْظُرْ

نظرتُ، فإذا بي أرى جيشًا من المُهرِّجين والمُمثلين ويتقدمهم شابٌّ في الثلاثين من عُمرِه يضعُ على رأسِه تاجًا من الذهب كأوراق الغار، وقد زيّن وجهَه بالصِّباغ كأنه مُهرجٌ، وحوله الجنودُ ويتبعُه جيشٌ من الممثلين والمغنين والمهرجين.

– هل هذا مُمثلٌ جاء ليُقدِّمَ عروضًا لكم؟

– اصمُتْ... اصمُتْ لَعَنَكَ الرَّبُّ...

– أخبرني فإني جاهلٌ، وقد أتسبب في بعض المشكلات لي ولغيري...

قلتُ هذه الكلمات، وأنا أريدُ أن أُوقِعَ به لأعرفَ ما الخبر.

- إنه الامبراطور "نيرون بن كلوديوس" ملك روما، جاء بعد جولتِه الفنية في المُدن وهو يعرضُ مَسرحياتِه وأغانيه.

- إمبراطورٌ يُمثِّلُ ويُغني؟

- لقد جاء وكأنه بطلٌ فاتِحٌ حرر وفَتَحَ أصقاعَ الأرض.

قال هذا بنوعٍ من السُّخرية المُرّة.

- انظرْ، واهتفْ؛ فإن الجواسيس في كل مكانٍ، وقد تُمسي طعامًا لأحدِ حيواناتِه الليلة.

ابتعدَ عني الرجلُ وأنا أنظرُ إلى الإمبراطور وقد لفّتني الحيرةُ، سُخطٌ شعبيٌّ، وانهيارٌ سياسيٌّ، وإمبراطورٌ طاغيةٌ يُمثِّلُ ويغني... لماذا؟ وما الأفكارُ التي في رأسِه؟ وما مُستوى الروح فيه؟ إن الفنَّ يُصْقِلُ الرُّوحَ إذا كانت ثقافته ترتقي بالفِكر وترفعُ النَّفْسَ إلى الفضيلة، أمّا إذا كانت الثقافة سطحيةً والمعرفة فارغةً يصبحُ الفنُّ نوعًا من أنواع التدهور الأخلاقي، ولكنه يجمعُ بين الفنِّ والرذيلة، لا بدّ لي أن أعرف: ما الضمير في هذا الشخص؟ نعم، الضمير هو صوت الحقِّ الصادح...

جلستُ بعيدًا عن الضوضاء في حديقة عامَّة على حافَّة بُحيرةٍ ينتصب فيها تمثالٌ لفتاةٍ شبْهِ عاريةٍ تَسكبُ الماءَ من جرةٍ في يَدِها...

تذكرتُ الحَكيمَ في المَعْبَدِ، غمرتُ يدي بالماء، وأغمضتُ جفوني، وسافرتُ عبرِ عوالِمِ الرُّوح إلى الفضاء اللا كونيّ لأشعر بذبذبات الذَّاتِ الكاملة... وبدأتْ رِحلتِي.

***

قرّرتُ أنِ أُمضيَ هذه الليلة مع غانياتي، فقد كُنتُ في الليالي الماضية أقطعُ الطَّريقَ بالزِّيِّ الذي كنتُ قد اخترتُه لهذا الغرضِ، وخاصةً بعد أن بدأتْ سَهراتيَ الليلية تُطْبِقُ على صَدْري، نَفْسُ الوجوه، ونَفْسُ الإناث، ونفسُ الأجساد، هنَّ تلك العاهرات يُقدِّمْنَ أجسادِهُنَّ لي، ويمثلنَ دور المستمتعات بالجنس معي، وأنا أعرفُ حقيقة مشاعرهنَّ، الكره والاشمئزاز مني ومن رائحة أنفاسي التي تنبعثُ من بين أسناني ممزوجةً برائحة الخمر المعتَّقة، ولكن هذه الليلة قررتُ أن أمارِسَ الجنسَ في الشُّرفةِ المُطلَّة على الحديقة، وأنا أُشعِلُ الأضواءَ لأستمتع بهذه الأجواء، لقد أخرجتُ من السجن مجموعةً من الأشخاص، وأمرت أن تُربطَ أجسادُهم في الحديقة وبشكل عشوائي، لا لكي يروني وأنا أُضاجِعُ العاهراتِ بوحشيةٍ وشهوانيةٍ، أبدًا، ولكن لأشعلَ أجسادَهُم، وأستمتعُ بصياحِهم وبوهَجِ النار الذي ينعكس على أثداء تلك العاهرات وسيقانِهنَّ المرفوعات أمامي.

كنتُ أفكر بهذه الطريقة، وفعلًا نفذّتُ الأمرَ مرات عدة، ولكن عندما عدتُ إلى البهو لأشارِكَ الناسَ البهجةَ في الطعام والشرابِ،

دسَّ الخبيثُ باريس في رأسي الأمرَ الذي كنتُ أُفكِّرُ فيه، أنا أعرفُ أنه يكذبُ، وهو يعرف أني أعرفُ أنه يكذبُ، أنا أتظاهَرُ بتصديقه وهو يتظاهَرُ بتصديقي أني صدقتُه، إنها دوامةٌ فعلًا، فقد قال لي: إن أغريبينيا تُحيكُ المؤامرة لتنقلب عليَّ، وأنها تُجهز بلوتس بن أغسطس قيصر، وأنه وعدها بالزواج عندما يصبح الإمبراطور.

كنتُ أعرفُ أن باريس يكره أغريبينيا أكثر من كُرْهِهَا إيَّاه، وأنه وشى لي هذه الوشاية لأتخلَّصَ منها، سأُقدِّمُ له رأسَها على طَبَقٍ من ذهبٍ لأرى ما الذي سيفعلُه فعلًا.

تظاهَرْتُ بأني استشطّتُ غضبًا عندما أخبرني باريس عن مؤامرة والدتي، وقررت أن أُنفّذَ فيها حُكْمَ الإعدام، ولكن بورروس هَدَّأَ من رَوْعِي وقال لي: يجب أن أعطيها فرصةً كونها متهمة، أنا أعرف كره بورروس إياها، ولكنه كان يفكر بطريقة لم تعجبني قط – الدبلوماسية – طلبت أن تحضر إلى قاعة المحكمة وتمثل أمامي، وفعلًا عندما جاءت كانت نوبة غضبها شديدة، وبدأت ترشُقُني بأبشع الصِّفات، وكنتُ أسمعها دونَ أن أنبسَّ ببنت شَفَة، فقد كانت مُحقّة تعرفني حَقَّ المعرفة، لقد كان غَضَبُها يُخفي ما فيها من أنوثة، مع العِلم أني رأيتُ أنوثتَها أكثر من مرة، وقد قَصَدَتْ أن تَظْهَرَ لي أنها امرأةٌ لتُحرِّكَ غريزتي، وتُسيطرَ عليَّ.

سُحقًا لذاكِ الحكيم سينيك الذي علّمني فيما سَبَقَ أن الرخص سيبقى دائمًا صفة أولئك الذين يُرخصون ويسفّهون من حولهم، العصفور الذي يَصْدَحُ بصوتَه ليُغريِ صَيَّادَه لا يستحقُّ صوتَه الصَّادِحَ، والعاصفةُ التي تهبُّ لتسكتَ نَقيقَ الضفادع لا تستحقُّ أن تأخُذَ شَرَفَ الاسم، والنَّهرُ الذي يجري لأجْلِ مَجْراهُ فقط، ولا يَسقي سوى الحجارة ليس بنَهْرٍ ...

وأنا أنظرُ إليها وهي في قاعة المحكمة، تشتمني وقد بلغت الأربعين من عُمرِها، أتذكَّرُ عندما كانت تخلعُ ثيابَها لتستحمَّ أمامي، وكيف كانت ترتدي أمامي أثوابَ عاهرةٍ فقط ليَظْهَرَ من جَسَدها ما يُغري، وكيف كانت تُقبِّلُني عندما أشعرُ بالانزعاج، وكنتُ دائمًا أُمثّلُ دور الغاضبِ لأنالَ من شفتيها قُبلةً مُثيرةً، نهضتُ ونظرتُ إليها نظرةً تعرفُها، تلك النظرة التي كشفتْ لها تلك الليلةُ شَهوتيَ ورغبتي في أنْ ألجَها، وكانت ليلةً حمراءَ بيننا لا يعلم بها أحدٌ، عندما رأت نظرتيَ هدأتْ عاصفتُها وأطرقتْ كما لو أنها تقفُ عاريةً أمام الجميع، وبدأتْ تُجيبُ عن الاتهامات، ولكن بعد جلسة الاستجواب رأيتُ أن أتركَها بقصرها مذمومةً حتى لا تشعرَ أني أخافُها.

مرّت فترتي هذه وقتَ كنتُ أبحثُ عن عاهرةٍ جديدةٍ تستطيعُ أن تناديني باسمي، أن تعصى أمري في الفراش، أن تبتعدَ عن رغبتي الهائجة كالثور المَجروحِ، فالمُعاندةُ قد تُخلَقُ من اللا شيء موجودًا حقيقيًّا،

وفعلًا وجدتُها في إحدى سهراتي الماجنةِ وهي تتخبطُ في نارِها بعد أن شربت من الخمرة ما يَجعلُ فيلًا كهلًا ثَملًا، طلبتُها لتأتيَ إليَّ... رفضتِ القُدومَ، وكانت تعرفُ بطشي وحِقدي، نهضتُ إليها ووقفتُ أمامها وقلتُ لها:

– لماذا لم تنفذي أوامري؟

– إن أوامرك لا تَنطبِقُ عليَّ...

قالت هذه الجملة وهي تنظرُ إلى داخل عيني لتخترقني، لمحتُ بريق عينيها القويَّ والذي ينمُّ عن شخصيةٍ مُتمردةٍ مِثْلي، صَعقتْها صفعةً جعلتها تقعُ، وقفتْ وقالت لي: أريد أن أرى رجولتك في موضعٍ آخر، وهي تُكشر عن أسنانها بعربدةٍ غريبةٍ عني، هذه الكلمة جعلتني أراها ساحرةً، حملتُها وذهبتُ معها إلى مخدعي، وقد كانت أنفاسي هائجةً وأنا أستمتعُ بهذا الصَّيد الثَّمينِ، دخلتُ الغرفة ورميتُها على السرير، وبقيتُ كل الليل أُحاوِلُ أن أقربَها وهي تُمانِعُني حتى استسلمتُ لها، وقفتْ وتقدمتْ إليَّ بعد أن كنتُ قد ارتميتُ على الأرض ووضعتْ قدمها على صدري، وقد تعرّت تمامًا فشعرتُ بهذه اللحظة أنّي رَهْنُ إشارتها، لم تكن رغبتي في طاعة "بوبيه" لأنها أنثى لا... ولا لأني أرغبُ فيها... لكن لأنها رأت شخصيتي الهشّة وخوفي من الآخرين، رأتني كيف أُهاجِمُ الناس بطيشي وغضبي وأنا أُخفي فيهما خوفًا وعدم توازن في عقلي ورأيي.

في تلك الليلة التي طلبت إليَّ أن أهجر زوجتي أوكتافيا، وكنتُ أريد أن أُنفّذَ أوامرَها بحذافيرها، أمرتني أن أُطلّقَها أمام الجميع، وعندما وصل الخبر إلى أغربينيا جاءت لتمنعني من هذا، فهي تقدّر أمورَ الحكم أكثر مني، يا لها من غبية تعتقد أني بحاجة لنُصحِها! ولكني انصعتُ لأمرِها بعد أن أخبرتني أن الهياج الشعبي سيلقي بي خارج اللعبة، دخلتُ لأكلّمَ بوبيه ولكنها ثارت في وجهي، وواجهتني بنفس مُفردات أمي في المحكمة، فانكشفتُ أمامها، وقررتُ التخلُّصَ من أمي في الشخصين... بوبيه وأغربينيا.

أرسَلتُ أمي أغربينيا في رحلة صَيد بحريٍّ وأمرتُهم أن يرموها في البحر أو يحرقوا القارب، ولكن عرفت أنها نَجَتْ من الغرق بأعجوبة، فقررت أن أمزّق جسدها الذي متعتني به بالسيوف، فأرسلت لها عَدّةَ جنودٍ بقيادة أنيكيتوس صديقي القديم، والذي كان يعشق أمي وكان يمارس الجنسَ معها مُذْ صِغَرِهِ وهجرته فيما بعدُ لأنها شعرت أنه لا يَليقُ بها.

دَخَلَ القصرَ وهو مُلْتاعٌ لتمزيقها، وعندما رأتْهُ علمت أنها في عداد الموتى بعد أن أهانته عدة مراتٍ سابقة، بدأت تلعنني وهو يُمزّقُها، وعندما انتهى أحرقَ باقي مِزَقِ جَسدِها، وهكذا كانت لعنتُها تلحقني لا بالكلام فقط وإنما بالثقل على متوني، وبقي عليَّ لإرضاء بوبيه التخلص من أوكتافيا، لقد كنتُ أشعر أنني فنانٌ حقيقيٌّ يستطيع

أن يرسم خطوط حياة الناس، وأن يكتب سيناريو حياتِهم وتصرفاتِهم بسُلطته، أعجبت بتلك السُّلطة ولم يكن لديَّ ما أفعله سوى تغيير الأشخاص حولي، ولكن يجب عليَّ ترتيب الأحداث من جديد.

لقد شعرتُ بهياجِ الشَّعبِ لقَتْلِي أمِّي التي كانت تملك سُلطةً حقيقية، فقررتُ الهروب إلى نابولي لأبدأ بالتجهيز للفصل التالي من مسرحيتي العظيمة، وكانت الفرصة مُواتيةً لشراء مجلس الشيوخ، وعندما أعادوا روما إليَّ دقيقًا أبيضَ منخولًا وعسلًا رجعتُ لأُطلِّقَ أوكتافيا وأتزوج بوبيه، فقد كان الأمر جميلًا، عندما تقومُ بكل هذه الرذائل ومَن حولك يُشرِّعُها لك، يبرر لك ويقوم بالدفاع عن مكانك دون أن تطلب منه، فيخاطِبُ ضمائر الناس بحُنكته ومعرفتِه بهم، فهو يوفِّر عليك عناء الجهد والتعب، ويعرف أن بقاءه من بقائك، ولكن الجمهور استاء من هذا العرضِ ثانيةً؛ فقد كان يرمي أكاليل الزهور حول تماثيل أوكتافيا، لا بد أن أنفيها حيثُ أسطول ذاك الفاجر القاتل أنيكيتوس، فهو لن يتركَها بعفتِها، وخاصةً بعد أن باءت مُحاولاتُ بونييه في إدانتِها بالفشل... تلك المجنونة قَتَلَتْ كل الخادمات والوصيفات؛ لأنهن رفضن شهادة الزور ضد سيدهم أوكتافيا، الغباء الذي يجعل الشخص يذوق العذاب من أجل إخلاصه لشخصٍ قد لا يراه بعينيه أبدًا، فعلًا العبد يُدافعُ عن الشخص بوجوده المادي بعيدًا عن أفكاره وأثرِه، هي الكارثة...

عندما ترتبطُ الأشخاصِ بالقيم والمبادئ فيصبح المسؤول رمزًا للوطن، ويصبحُ الوطنُ تابعًا للحاكم، فزوالُ الحاكمِ هو زوال الوطن، مع أن الوطن دائمٌ منذ الأزل وإلى الأبد، وصلتني شكوى أن أوكتافيا حرّضت أنيكيتوس على الانقلاب ضدي، وأنها قَدَّمت له جسدَها عربونًا عن الاتفاق، كنتُ أعرف أنها وِشايةٌ، ومتأكد أن بوبيه من أشاعها ولكن عندما تخيلت أن أوكتافيا تتمرَّغُ على فِراش ذاك الحقير، وأنه يتمتع برحيقها، بدأت ثورة الغضب تشتعل في رأسي وهذه المرة لم يكن تمثيلًا أبدًا، أرسلتُ بطلبِها ولم أستطع تحمُّلَ رؤيتها فأمرت بإعدامِها فورًا...

إني أفكر الآن... ببوبيه التي كانت فرسًا جامحًا ما الذي حَلَّ بها؟ رفستُها طوالِ الليل حتى ماتت من تَمزُّقِ أحشائها جَرَّاء شدَّة الضرب، وَهي تعتقد أنها تستطيعُ أن تحكمني، إن خدمة السلاطين مُعضلةٌ حقيقيةٌ على العقل البشري، فخِدمتهم ذُلٌّ، وطاعتُهم مَهانةٌ، واتّباعهم عارٌ ومجالستُهم استكانةٌ، وإرضاؤهم مُحالٌ، وإغضابُهم خيانةٌ... وابنها الطفل أغرَقته في الماء، أنيكيتوس الذي كان كلبًا وفيًّا لي دبَّرَت قَتْلَهُ بالسُّم...

سينيك الشيخ الفاضل الذي علّمني لقد زججت اسمه في المؤامرة التي ابتلعت حوالي خمسة آلاف شخص، إنهم أغبياء فعلًا، أيُعطون الخنجر المسموم لأبيكاريس ليطعنني فيه وينفذ عملية الاغتيال وهو

الذي عُرف عنه التهور؟ بدا عليه الاضطرابُ حيث أعتقَ بعض الخدم، وتصرَّفَ بتوتُّرٍ غير مألوف منه فكشفَه خادمُه، فعلًا لا دخل لسينيك بهذه القذارة فإن العلم يرفع النفوس إلى حُدودِ الكمال، ويرفع الرُّوح إلى منازل التبصُّر، ويُصقِلُ الجوهر من ماء المعرفة، لذلك لم يدخل في قذارة السياسة ووحلها قط، ولكن قررتُ أن أتخلص منه، حاصَرَ الجنود قصره، فطلبتُ منه أن يقتل نفسه بيده قبل أن أفتك به وبكل أفرادِ عائلته، ولأنه حكيمٌ قطّعَ أوداجه... ومضى...

قد أفكر يومًا لماذا هو؟

هو معلمي وأستاذي، ولكني كنتُ أخافه دائمًا، فهو الذي رفع عليَّ سُلطةً لا سلطة فوقها، وهو الذي كشف جهلي وداوى ضعفي، إنه يعرف من أنا أكثر من معرفتي بنفسي، قبل أن يكون اليوم.. كانت الفكرة، وكانت ثمرة واللغة هي الشجرة وذات يومٍ كانت الأيدي نائمة فأيقظتها الحاجةُ، ونفس اليوم الذي طلبت فيه المعدة فقادت الأقدام نحو الحقول، وتاقت الروح للانعتاق من أجسادِها، فنهلت العِلْمَ والمَعرفةَ، وقبل أن يكون الغيم أبيضَ كان في رحم الأرض جنينًا، وكانت الثلوج في بطون البحار، وصبرت الينابيع طويلًا قبل خروجِها من سفوح الجبال، وسكنت البراكين قبل أن تندفِقَ بحممِها.

وسينيك هو كل هذا... هو العلم... المعرفة التي تنتقل عبر الروح ولا تسكن الجسد، فإذا كان هذا العلم حقيقيًا بَقِيَ وأثْمَرَ لينتقل مع الروح في عوالِمِها الغامضة، أمّا إذا كان زيفًا تفتت مع الجثة تحت سَميك التُّراب.

وهأنا الآن وحدي... نعم أنا وحدي... أنا ذاك الفنان العظيم، سأغيرُ تنظيم روما العظيمة، وسأنتظرُ هنا في هذا البرج لتخرج النار من السِّيرك إلى الأحياء فتلتهم الأبدان والمواشي والأشجار، فاحتراق النار واللّعب بها هو يمثل حرق شوائب الروح فينا إذا كانت فينا تلك الشوائب، أو حرق صفحات المعرفة إذا كانت تعوق الظُّلمة الممتدة إلى أعمق أعماقنا، فكلٌّ منّا حسب جوهرِه...

سأنتظر هنا دون أن أشعر بالندم أو الخزي أو تأنيب الضمير... سأنتظر وأرى، فأنا الفنان الكبير الذي سأغير وَجْهَ العالم بنفسي...

بدأتُ أعزفُ وأُغنّي مَلحمة هوميروس في حرق طروادة، يا لها من أشعار رائعة! وأنا أسمع الصراخ يختلط باحتراق الجلد والشعر وفوران العيون من حرارة الجسد، إنها الحقيقة الوحيدة التي عِشتُها في حياتي... الموت...

سحبتُ يدي من البحيرة وأنا أغْمِضُ عيوني عن الوجود حولي، وقد بدأت أسكن جسدي من جديد، فقد كرهتُ ذاك الجسدَ الشَّهوانيَّ الذي سجن الروح خلف سدٍّ من الأهواء الرخيصة، شعرتُ

بروحي تسري في بدني الهوينى، كانت تدخل في تجسدي كما تدخل أنفاسي في صدري خفيفةً كثيفةً، بدأت أرفع جفوني لأرى نفس البحيرة ونفس التمثال، ولكن لاحظت أن العتمة تلفُّ المكان، وأن لا بحيرة هنا، فقط طريقٌ طويلة مُحاطةٌ بالأشجار ويدي قد انغرست في الثلج المتساقط، وقفت واجفًا لأتمعن في تضاريس المكان، فقد كانت الظلمة تبتعد إلى أعالي السماء بعد أن انهمل الفجر برذاذه الوضّاء، وقفتُ وتقدمتُ في السَّير وأنا أشعر ببعض التعب من ثقيل الفعل الماضي، فلا هروب من هذا الفعل، قد يثقل كاهلي قرونًا قادمة، لأخرج من هذه البقعة، فقد شَهدتْ معي رذائل لم يعرفها التاريخ، علّني أنسى ما مررتُ به وأتذكر ما يجب أن أتذكره عندما أواجه صفحة الصبح النَّدية وأنا أكمل رحلتي هذه.

كان الطريق ينخفض من تلك التبَّة العالية إلى واحة سهول خضراء امتدت بمساحات الرؤية الشاسعة، فالجبال تحيط بالسهول من كل جانب والضباب يحيط بالجبال، وكأن هذه البقعة معزولة عن العالم والطبيعة، فإن سكونها وألوان عُشبها يعطيها انطباعًا سحريًّا ذا بُعْد رُوحيٍّ حقيقيٍّ، شعرت بأن صدري قد اتسعَ، فأخذت أعبُّ من نسيمِ الصباح المرتعش لأنفضَ عَتَمةَ الليلةِ المُنصرمة، في كل خُطوةٍ أتفكر بعظمة السلطانِ وجَبروتِه، لكن هذه التجربة لم تكن للسلاطين بل كانت لعبيد الجسد...نعم لعبيد الجسد وشهوانيته، كيف لي أن

أفهم سلطان الدنيا ومجده؟ فقد بدأ الضِّيقُ يصعدُ إلى حنجرتي وأنا أمشي بسرعةٍ في الطريق المنحدر، هل السلطان هو طَمع بالموجود؟ هل هو حبٌّ للثروة وشَهوة للحكم؟

لقد خَربط كل ما في رأسي ذاك النيرون...فقد كان حاكمًا ولكنه سعى للشهرة بفنِّه الزائف... حرق أديم روما لمجرد كبريائه، وتخلّصَ من الناس لمجرد خوفه ووحدته، إذًا السلطة شيء والشهرة شيء آخر، يُظهر الفن الحقيقي قوة الحياة وألقها، مثلما يظهر الضياء من النار، والوهج من الجَمْرِ، والقمح من الأرض، وكيف يصبح الطحين المعجون بالماء النظيف والنار النقية أرغفة الخبز الصالحة للأكل والتي تُغذي الرُّوح لا الجسد.

وحيثما وطأت الكلمةُ الصادقةُ تركتْ خَلْفَها ميسمًا ولو بعد حين، كما تترك الأمطار جنينها في رحم الأرض، وكما تترك الثلوج نصوعها فوق القِمم الجبلية، وكما ترسم الأمواج وجوهها فوق بدن الصخور.

سأستمرُّ في المشي في هذه البقعة الساحرة، وقد أبقى فيها لبعض الوقت كاستجمام بعد أن قضيت في قصورِ روما وغُرفها التي تغصُّ برائحة الرذيلة ما قضيت، فلعلّي أَجدُ ضالتي في المكان التالي أو في المحطة التالية فلا أعرفُ ما هو القدر الذي رافقني إلى هذا المكان، ولكن أثق بوجوده، وأثق أنه يتماشى مع طريقي في الفضاء الرُّوحي هناك.

الباب السادس

"القَويُ مَنْ حَكَمَ غَيْرَهُ وَالعَظِيْمُ مَنْ حَكَمَ نَفْسَهُ".

لاوتسو



كَانَتْ المنطقة هذه جامدة لا فوضى فيها كباقي المناطق، ساكنةً هادئةً تَسير بها ركبان الأيام على وتيرةٍ مُنتظمة، أهلها يعملون وهم يتشاركون الأرزاق، وقبورهم أمامهم قريبة منهم، والسّماحة لا تُفارِقُ وجوهَهم، حتى أرزاقهم خيّرة وافرةٌ، ومياهُهم غَدِقةٌ شهية.

مَشيتُ بين بيوتهم، وقد انتبهتُ إلى أن هذه البيوت مَبنيةٌ على نَسَقٍ مُتشابهٍ لا فَرْقَ بينها، ولا يوجد أماكنُ للعبادة أيضًا، وقد التصقت هذه البيوتُ بالمقابر، فأمام كل بيتٍ مجموعةٌ من القبور، مشيتُ حتى وصلتُ إلى بيتٍ مفتوحِ الأبواب لأستريحَ فيه قليلًا، وكان ثوبي يدلُّ على أني من طلّاب الحكمة الجوّابين، وصلتُ إلى مَضْيفةٍ لبيتٍ ما مرتفعة بأكثر من درجة مفتوحة الأبواب يقعُ في مركز المنتصف من القرية وخلفه امتداد للحقول الواسعة والتلال الممتدة، ويخرج منها رائحة بخور أصيل مختلط بصوت ترانيم موسيقا ساحرة،

وقفتُ ببابها وأنا أستمتعُ بهذه الموسيقا، فانتبه لي العازف، توقف واقترب مني وقال لي ببشاشةٍ لم أعتدْها قَبْلًا:

– تفضلْ بالدخول، أهلًا بالحكيم...

نظرتُ إليه نظرة استغرابٍ وذُهولٍ...

الحكيم؟ أنا حكيم؟ لا بدّ أن ثوبي خَدَعَه؛ فإن مظهري لا يبدو أني أقارب الحكمة أبدًا... ولكن كيف يبدو مظهري فأنا لم أنظر إلى المرآة مُذْ خرجتُ من المعبد... ولكن لا بأس، الأمرُ سِيَّان، فالشكل الخارجي لا يدل على صاحبه، والمرآة الداخلية هي التي تعكس صورتك الحقيقية ولا أحد يراها سِواك.

اقتربِ الشيخ ليقدم لي بعضًا من الماء في إناء فخاري فاحت منه رائحةُ التُّرابِ الرطب المنعشةُ بعد أن جَلستُ في هذه المضيفة، كانت واسعةً مُستطيلةَ الشكل ترتفعُ على جَنَباتِها الثلاث مصطبة طويلة تحيط بجدرانها، وقد فُرشت باللّباد الخَشِنِ، قال لي بعد أن شربت:

– هل كانت رحلتك مُتعبةً؟

– لا بأس بها... نوعًا ما...

– إننا ننتظر أن تمرَّ علينا كل عشر سنوات مرة، وأعتقدُ أن الجميع سيفرحون لوصولِك، فقد طالت غيبتُك هذه المرة...

– ولكن أنا لستُ الشخص المطلوب...

قلتُ هذا وأنا أضعُ إناءَ الفَخار على الأرض، ولكنه أردفَ قائلًا:

- إن من صفات العِلم والحِكمة هو التواضُع، وأعتقد أنك تحمَل الحكمة منذ زمن يتطاول في شروخ الماضي، لا يرتدي هذا الثوب البرتقالي إلّا حكيمٌ خاضَ تجارِبَ وأبوابًا ومعالِمَ كثيرة.

نظرتُ إليه، فقد كانت كل تفاصيل وجهه تبتسم لي، يطلقُ نظرةَ احترامٍ وتقديرٍ، خُشوعٍ ومحبةٍ، ولكني أعتقد أني رأيته غير مرةٍ، جسدَه النحيفَ الطويلَ، ورأسَه الأصلع وشاربيه ولحيتَه البيضاء وعينيه الهادئتين، ووجهه الأبيض الناصع، كأنه يشبه ذاك الحكيم نوعًا ما... تذكرت أنه قال الثوب البرتقالي... ولكني أرتدي ثوبًا بنيًّا... نظرت إلى كامل ثوبي فإذا به بلونه البرتقالي يَشِعُّ بوهَجٍ خلّاب، عرفت أنها أحد عوالم المعرفة... قال لي عندما أخذتُ نفسًا عميقًا ورجعتُ لحالة التركيز معه:

- هل تريدُ أن ترتاح الآن... أم أنك ستقابِلُ الناسَ ليستمعوا إليك؟

فكّرتُ أن هذه القرية وسكانها هي إحدى النقاط القائمة في الأرض لنَشْرِ الحِكمة، فهيَ امتدادٌ للمعبد الذي انطلقتُ منه، فالسكونُ هذا لا يوجد إلّا في الأماكن المُخصصة للمعرفة... والهيئة والقبور، فأدركتُ أن أهلها هم أهلُ عِلْمٍ وحِكمةٍ، وأني يجب أن أتعلم منهم لا أن أعلّمهم، قررْتُ في خلدي أن أنسحب لأن مَن وَضَعَ

نفسَهُ في غير موضعِها أهانها، ومَن وَضَعَ نفسَه في موضعِها أكرمها، فقلتُ له:

– لا... أريد أن أتمشى قليلًا في رحاب البرية...

نَظَرَ إليَّ وابتسمَ كما لو أنه سمع قراري وقال:

– كما تريدُ أيها المُعلّم ...

خرجتُ من بين البيوت، ومشيتُ في الفُسحة الحقلية خلفها، وعندما رأيت السهول الواسعة رحتُ أجري في البرية لأبتعد عن هؤلاء الحكماء، فأنا لا أقدرُ أن أكون بينهم حكيمًا وهم أهل الحكمة، أنا في هذه الرحلة أحاولُ التعرُّفَ إلى ذاتي من خلال المعرفة والحكمة التي يمكن أن أكتسبهما من تجربتي، لا أن أكون معلمًا لمن هم أَعْرف مني، ركضتُ كثيرًا حتى لم أعد أستطيع التقاطَ أنفاسي، ولكن لم أرغب بالتوقُّفِ لأني شعرتُ بقُربِهم مني، وبعد ساعاتٍ من الركضِ المُتعِبِ وجدتُ نفسي في سوق مدينةٍ كبيرةٍ يصطفُّ الناسُ فيها على الطرفين، وحيث أصبحتُ في وسط السوق ارتفعت الهُتافات والتصفيق، اعتقدت أن أحدًا من الأباطرة سيمرُّ من هنا، ولكن عندما تقدم إليَّ قائد طليعة من الجند وانحنى أمامي أدركت أني المقصود وقال لي:

– أيها المُعلم الحكيم... إن جلالة الملك ينتظر قُدومَك.

أومأتُ برأسي وأنا لا أعرفُ ما الذي يحدثُ، وفي الطريق كانت الناس تهتفُ وتنثرُ الورود والأكاليل، وعندما أصبحنا على باب القصر الذي كان يرتفع شامخًا بين عمودين من الرخام الأبيض، وَلَجْنَا الباب حتى أصبحنا بعد الممر الطويل في بلاطٍ ينتصبُ فيه عرشٌ كبيرٌ، وسقفه مرفوعٌ على مئاتٍ الأعمدة الذهبيةِ والفضيةِ، تقدَّمت فوجدت الملك يجلس على العرش وحوله حاشيتُه من الشيوخ والوزراء والنساء ورجال السلطة، كان يبدو عليه الأرقُ وقِلَّةُ النوم، وقد وَضَعَ على رأسِه تاجًا عليه قرنان من الذّهبِ، وقبل أن أصل إليه هبَّ من مكانه وتقدم إليّ وأمسك يديَّ وقال لي بامتنانٍ:

- أشكرك على حضورك أيها المعلم الحكيم، لقد كنتُ وشعبي ننتظرُك بشوقٍ، فقد صدقت أقوال شيخ القرية المسحورة بأنك ستأتي في هذا الوقت.

كنت أهزُّ رأسي دائمًا لأني لا أعرفُ ما الذي يدور حولي، ولكن على كل حالٍ لا أستطيعُ الهَرَبَ من هذا المكان كما هربت من مضيفة الزّهاد هناك، أخذني الملك إلى كرسي بجانبه وقال لي لوعةٍ وتوسُّلٍ:

- في العام الفائت سَمعتُ عن نبعةٍ يُقال لها نبعة الحياة، وأن من يشرب منها سيبقى خالدًا لا يذوقُ الموتَ، وبدأتُ أبحثُ عنها، لأني أملك معظم أصقاع الأرض وجُبّتُ مع جيشي بقاعًا كثيرة ولم أحظَ

بذلك النبع، حتى اعتقدت أنها محضُ خيالٍ وخُرافة، ولكن في إحدى الليالي العاصفة، تاه دليلنا ووجدنا أنفسنا في مكانٍ غريبٍ لا يُشبهُ أي مكانٍ بهُدوئه وسُكون طبيعته، بيوتٌ بسيطة والمقابر بجانبها، وزرعُها وفيرٌ، وماؤها طيبٌ، والجبال الضبابية تحيطُ بها من كل جانبٍ وكأن لا طريق إليها...

كان الملك يقصُّ عليَّ هذه التفاصيل وهو يعيشُ فيها حقًّا، لا يبدو أنه قد أحبَّ شيئًا في حياته أكثر من هذه التجربة، وكنتُ أعرفُ المكان المقصود، هو المكان الذي هربتُ منه منذ ساعاتٍ انقضت...

– اقتربتُ من أحد البيوتِ، فسمعتُ صوت موسيقى جميلة وعذبةٍ، ترجّلت عن حصاني ودخلت المضيفة دون حرسي، فإذ بها شيخ طويل القامة...

قاطعتُه وأكملتُ وصف الرجل بدقّةٍ وكيف قدّم له الماء، ذُهل المَلِكُ من معرفتي واغرورقتْ عيناه بالدموع، وراحت شفتاه ترتجفان من شِدَّة التأثُّر، وأكمل وقد انفرجتْ أساريرُه وعرفَ أني ضالّته...

– نعم... نعم... وعندما شربتُ الماء قلتُ له:

– أنا حاكم أكثر بِقاع الأرض اتساعًا، وجئتُ لأبحثَ عن نَبْعِ الخُلود، فهل تعرفُ أين أجِدُهُ؟

هزّ رأسَه بنوعٍ من عدم المبالاة الواضحة، وارتسمتْ فوق وجههِ علاماتُ الزُّهْدِ وقال لي:

– نعم أعرفُ أين هو...

– أين هو أجبني؟

– إنه هنا...

وأشار إلى صدري...

– ماذا؟

– إن الخلود هو معرفة الطريق، والطريق هو الذي سيوصلُ الشخصَ إلى التوحُّد مع الذات...

– لا أريد منك أن تفسر الأمرَ وكأنه فلسفةٌ رُوحيةٌ... أريدُ جوابًا...

قلتُ هذه الجملةَ وقد بدأ الغضبُ يتّقدُ في جوانبي، فتَعبُ الطريق والبحث دون جدوى كانا قد أفقداني صوابي، وعندما رأى حالتي الهائجة هذه خرج من المضيفة وتناول حجرًا من الأرض وعاد إليّ وقال:

– هذا هو الجواب...

– ما هذا؟ إنه حجر...

- عُد إلى قَصْرِك وسيأتي إليك المعلم الحكيم - وقد وصفك وأعطاني التاريخ الحقيقي لقدومك - والذي سيُعطيك حلًّا لهذا الحجر، ولكن عندما تصل إلى قصرك حاول أن تعرف وزن الحجر من الجواهر والفضة والذهب.

خرجتُ من عند الحكيم وأنا أشعر بالغضب وأردتُ أن أدُكَّ هذه القرية بما فيها، ولكن منعني سُكونُها الجميل، وعندما وصلتُ إلى هنا وقد استغرق الطريق مني سبعة شهور وضعت مُقابلَ هذا الحجر الياقوت والألماس والذهب والمجوهرات في كِفة الميزان وبَقِيَ الحجر هو الأثقل، وهأنا منذ شهر أشعرُ بالضياع الحقيقي، وأُمضيَ وقتي بانتظارِك، فقد جافاني النوم، ولم يستطع أحدٌ من الحُكماءِ في مملكتي الممتدة على مساحة الأرض أن يعرفَ الحَلَّ، وبدأت الأحلامُ والكوابيسُ تُهاجِمُني.

- ومَنْ قال لك: إني أنا المعلم الحكيم؟

- علاماتُك يا مُعلِّم، فقد قلت لك: إنه ذكرها وذكر يوم قُدومِك وهو هذا اليوم وقد تحققت... والآن أخبرني عن تلك القرية، فقد أرسلتُ إليها عدة طلائع من الجيش ليأتوا بكبيرِها إليَّ ولكنهم لم يجدوا لها أثرًا على وجه الأرض، حتى اعتقدتُ أن الأمرَ سحرًا... ما هذه القرية؟

انتابتني موجةُ صمتٍ، ورحتُ أُفكِّرُ في هذه القرية، لقد كنتُ هناك منذ ساعات، وهو يقول: إنه أمضى عدّة شهور حتى وَصَلَ هذا المكان، وأنه أرسل إليها الجنود ولم يجد لها أثرًا... وأن الشيخ فيها أعطاه تاريخ وصولي إلى هنا، إذًا كان يعرف هذا الشيخ أني سأهرب من القرية وعرف أني سأستغرق عدة ساعات في الوصول إلى هنا وقد ضاعت مَعالِمُ القرية بعد خُروج الملك منها، ويريدني أن أشرح له حقيقتَها، ولكني لا أعرف حقيقة نفسي، ولكن لا أعتقد أني سأعجز عن هذا لأن اتصالي بمعبد الحكمة دائم... فقلتُ له:

- أحتاجُ إلى مكانٍ لأبقى فيه وحدي بضعَ ساعاتٍ، وعندما أنتهي من خلوتي سأجيبُك عن كل أسئلتِك...

أمر لي بمكان في القصر يرتفع في أحد الأبراج، غرفة جميلة صغيرة وأحد جدرانها شبّاك كبير يطلُّ على المدينة والجبال البعيدة، فيها سجّادة من الفرو الكثيف، وقد عُبِّقت برائحة البخور الأصيل، وعلى جدرانه عشرة شموع مُشتعلة ورفوف من الزجاج وُضعَ عليها الكتب والمخطوطات، جلست وبدأت أتأمل في الوعي المعرفي لديَّ وأنا أُردِّدُ في خَلَدي "آوووم" علّي أستطيع الاتصالَ بمعبد الحكمة.

بدأت رُوحي ترتفعُ مع خيط الدخان الصاعد من البخور، ورحت أُردِّدُ في صدري "آوووم" حتى صار كلّ جسدي يرددُها فانتقلتْ إلى عقلي ليرفعها إلى ذبذبات روحي في فسحة المعرفة اللا واعية

داخلي، انهارت ذرات المادة ولم أعدْ أشعرُ بأني جالسٌ على الأرض، فقد رفعتني موسيقا وترانيم الذات إلى مكانٍ لا يوجد فيه اتجاهاتٌ أو زمانٌ أو وقتٌ أو أيُّ شيءٍ... فقط نغمات خالدة تفجّر ينابيع الحكمة المعرفية في عقلي، رأيت وجوهًا كثيرة استجابت لدعوتي تُرنّم معي وكانت تُقدّمُ لي موجاتٍ من المعرفة والوعي، طُفتُ في أرجاء اللحظة حتى شعرتُ أني ارتويتُ من المعرفة وعَبقتْ ذرات روحي بذبذبة الترانيم الخالدة، فحملتُها معي إلى تلك الغُرفة لتبقى حيةً في أرجائي...

فتحت عيني وكانت الشمس على وشك الغياب فقد تآكلَ قُرصُها وكأن الشَّفقَ قُضِمَ منه قَضمات صغيرةً، وقفت وفتحت باب الغرفة ونزلتُ إلى القاعة، فوجدتُ المَلِكَ ينتظرُني وقد جلس في بهوٍ كبيرٍ ومكاني بجانبه وأمامه حَشْدٌ من حاشيته، العلماء والمفكرين والوزراء والنساء والجنود وكل طبقات الحكم والبلاط، تقدمتُ وأنا أشعُر بذبذبات المعرفة لأجلس في مكاني وأنا أنتظرُ المَلِكَ ليطرح عليَّ سؤاله الأول...

– لماذا يُحيط بالقرية جَوٌّ من السكون والهدوء التام؟

تذكرت وجودي في الغرفة أول رحلتي وأنا في المعبد، حين شعرت بالارتياح بعد تعبٍ مُضنٍ مررتُ به للوصول إلى المعبد...

- لأن الذات المعرفية قد تعزل الأرواح المتماشية معها في نفس النظام عن أي مؤثر خارجي قد يُعكر صفو التأمل، فكل شخصٍ يعيشُ حالة تأمل واعٍ لا يحتاج إلى خلوةٍ أو انعزالٍ فيها فالمعرفة هي التي تصنع العُزلة حوله.

- لماذا يسكن هؤلاء القومُ في بيوتٍ بسيطةٍ مُتشابهةٍ لا يميزُ أحدُهم مسكنَه عن الآخر؟

بقيتُ بنفس حالة التأمُّلِ حين دخلتُ كوخًا لعجوز عمياء لم أميّز أنه كوخ فقيرٌ أو أنه كوخ باذخ فقط وجدت فيه الراحة وطبيعة العجوز لم تتغير في كلتا الحالتين...

- تتحكم الذات الخالدة بقانون من القوانين التي تنظم الوجود دونه، قانون التغير وعدم الاستمرار، فكل شيء وُجدَ بعد نور المعرفة وظهور ضياء العقل هو زائل وإلى فناء، لذلك عاشوا هؤلاء في بيوت بسيطة مُتشابهةٍ لكي تخرج من قلوبهم الزخارفُ والكِبرُ، وحبُّ الدنيا وحُطامُها الفاني.

- لماذا يبنون بيوتَهم مقابل قبورهم؟

تذكرتُ عندما مررتُ بقُرب المقبرة وسمّيتُها مملكةَ الصَّمتِ، واسترجعتُ كل ما فكرتُ به حينها...

– لأنها بيوتهم أيضًا. فلا دار بعد هذه الدار، هي المستَقَرُّ الأخير لهذه الأجساد، تسكن فيه حتى تعود إلى عنصرها الذي خرجت منه.

– وهل التراب هو عُنصرُها؟

– طبعًا... التراب هو عنصر المادة الجسدية... منه خرجت النباتاتُ والحشراتُ والحيواناتُ والإنسانُ، وإليه تعودُ لتكمل دورة الحياة المتكررة في الفناء الدائم.

– وأصلُ أرواحنا؟

– الرُّوحُ هي نفحةٌ من نَفحاتِ الخالقِ، وهي دائمةٌ بديمومته، أَوجدَ الأرواح عرفان طاعته ومحبته، وأسكنها هذه الأجساد لتسعى دائمًا للخروج من سَطوتِها وتعودُ إلى عُنصر النُّور تَسبحُ حول الضياء البرّاق.

– وكيف ستنعتقُ من جسدِها وسَطوتِه؟

– بالمحبة... المحبون هم الواصلون، من أحبَّ جَوْهَرَ الرُّوح وسعى للعودة إلى أصله النوراني اللطيف قَبلَ نظام العقل الكوني وتعايَشَ مع هذا النظام سعيدًا فرحًا لا تشوبُ أفكاره الجسد والمادة.

نَظَرَ إليّ بعد ستة أسئلة متتالية، والكل في القاعة يتنفسون بهدوء، وهم يحاولون كَتْمَ اندهاشِهم، وحاولت أن أُطلقَ من داخلي ترانيمَ تجعل الأرواح حولي مُنسجمةً مع النظام الكوني المصنوع من الذات

الخالدة... وبعد أن أغمضتُ جفوني وبدأت أعزف في عميق معرفتي لحن الخلود هذا أحسستُ أن المكان أصبح ساكنًا لطيفًا ينسجمُ مع تلك النغمات فوق حيث اللا مكان واللا زمان...

وَقَفَ المَلِكُ وقال لي:

- هناك سؤال واحد أخير أريدُك أن تُنبئَني عنه وعندها تكون قد أوفيتنا حقّنا في النهل من نبع المعرفة والحكمة أيها المعلم الحكيم...

أَحضرَ الحجر الصغير ووضعه أمامي وهو يَترلُ بثقل في كِفّة الميزان وفي المقابل أكوام من الجواهر والياقوت والذهب والفضة، نظرتُ إلى الحجر فلم أَرَهُ حجرًا، لقد كان عين إنسان تتحرك وتبصر وتتلفت وقد بانت شرايينها الحمراء، توشّي بياضها وعضلاتها تحركها في جميع الاتجاهات بغضب، أمعنتُ النظرَ فيها فإذا هي تنظر إلى الأعمدة الفضية والذهبية في القاعة وتتلفت على الثُّريات المتدلية والمرصعة بالكريستال، حملت العين... نظرت إليها وقلتُ لها:

- لماذا تنظرين إلى كل ما حولك وقد امتلأت كِفتك بالكنوز؟

بدأت ملامح الغضب والضيق تبدو عليها واضحةً وكأن النار ستخرج منها، وتسارعت حركتها في الالتفات وأحسستُ أنها تتكلم، رجعت إلى الحكيم الذي حدّثني عند الشلال في رأسي، وحاولت استعادة حالة الصفاء التي كنتُ فيها، وبعد قليل سمعتُ صوتَها...

- إن ما لديَّ قليل... أريدُ المزيد...

فحدّثتها من صوتٍ داخلي:

- وهل الأعمدة الفضية والذهبية والثريات الثمينة تكفيك؟

- لا أريد أن آخذ كل ما أراه... كل ما أراه...

- عندما خلقك الله ألم يقسم لك رزقًا؟

- أعطاني نصف الكون ونظرت إلى النصف الآخر... أريده... حتى يهدأ غضبي....

عرفت ما الشيء الذي يُشبع هذه العين... أرجعتها إلى كفة الميزان وقلت للملك:

- أحضر لي حفنةً من التراب...

أمسكت حفنة التراب وأبعدت أكوام الذهب والجواهر من كفّة الميزان ووضعت الحفنة، نَظرتُ إلى العين فرأيتُها تهدأ وتزول عنها نظرة الغضب، لتغتمض وتمتلئ بحبور وقبول .. وعندما رأى الملك أن حفنة التراب قد زادت بثقلها لتغلب الحجر وقف وهو يتمزق من شدة الحيرة وقال لي:

- ما هذا... ماذا تعني؟

قلتُ له وأنا التفتُ إلى الجميع بعد أن رفعتُ الحجر عاليًا؟

- إن عين الإنسان كهذا الحجر... لا يشبع إلا من حفنة تُرابٍ.

عندما قلتُ هذه الكلمات شعرتُ أن النور قد انفتق من الأرض، وكأنه بركان يتفجر في أرجاء القاعة وسمعتُ أرواح الناس الحاضرة تتدافع إلى بوابة الضياء فأدركتُ أني قد أبليتُ في هذه اللحظة البلاء اللازم ليستدلّ الناسُ على باب الحقيقة، وأدركتُ أن هُروبي من قرية الحكمة كان مُقدرًا لأصلَ إلى هذا المكان المُفتقرِ للحكمة والمعرفة، أغمضتُ عينيَّ ورحتُ أُسافِرُ في غياهِب النُّورِ أُسلّم نفسي للسكون حتى شعرت أني عُدت شعاعًا صغيرًا يتناثر فوق أرواح النور الهائمة في وجودية الذات الكلية، وكنت متشوقًا لرؤية الحكيم لإخباره بما حَدَثَ معي حقًّا.

***

تلمستُ مكاني لأجدَ أني مُستلقٍ على فِراش من الصُّوف الجافّ وأن الجو باردٌ نوعًا ما، نظرتُ فإذا بي بين وُجوهٍ شاحبةٍ دهشة لوجودي، نهضتُ وكسرتِ مرآة حيرتهم ورحتُ أجوبُ بنظري المكان، فوجدتُه قبوًا من الحجر القديم المُتعفّن وفيه بابٌ من القُضبان الحديدية الضخمة، وأن المكان مكتظٌّ بالرجال ذوي الأذرع الضخمة والصدور الكبيرة الواسعة...

- أين أنا؟

- أنتَ في السجن يا مولاي...

عندما قال هذه الكلمات انتابتني موجة من الأفكار المشوهة...

مولاي؟ السجن؟

– أيُّ سجنٍ... ما الذي حَدَثَ؟

– لقد وَقَعْنَا في الأسْرِ قبل أيامٍ ونحن ننتظرُ الفداء...

– فداء من... والأسر بيدِ من؟

– بيد الفرنجة يا مولاي... وقد قَبل السلطان صلاح الدين أن يُقدِّمَ لنا الفداء.

أدركت أني في بابٍ جديد، وأني من قادة سلطان يُدعى صلاح الدين، وأنه سيُخرجني من الأسر، وبعد أيامٍ في هذا القبو الرَّطب العَفِن وأنا مع هؤلاء الجنود لم أستطع النومَ أو الأكلَ، فقد كانت الرُّطوبة والعُفونة تؤذي عِظامي تحت جلدي، سمعنا صوتَ قرقعةِ أقدامٍ وقعقعةِ سلاحٍ في الممر الخارجي وتلاه انسحابُ الأبواب الحديدية، دَخَلَ حرسُ الفرنجة وقالوا لنا:

– هيا استعدوا للخروج فقد وَصَلَ الفِداءُ من دمشق.

هاج المَهْجَعُ بالضحكاتِ والتصفيق وهنَّأ بعضُ الرجال بعضًا، والحمد والشكر، نهضتُ وارتديتُ لِباسي العسكريَّ وقد همّ الجنود ليساعدوني، ولكني أبعدتهم بهدوء، أخرجونا من الممرات إلى درجاتٍ عاليةٍ في زواريب القلعة القديمة، وعندما بدأ النهار يُرسل نوره عرفنا

أننا وصلنا إلى سطح الأرض، أخرجونا ونحن مكبّلون باتجاه السور الكبير، وعندما جلتُ بنظري في المدينة صعقتني موجةٌ من الصور المتراكمة، إني أعرف هذه المدينة، أعرفها رغم التغير البسيط الذي طرأ عليها، تلك القبة الذهبية الشامخة والكنيسة الكبيرة بمحاذاتها، وهذه البيوت الجديدة لم تُغير من الملامح قط، نظرتُ لأبحثَ عن الجليل وطريقه الدامي، وبدأتْ تتدافَعُ الأجساد إلى الأمام، وقفتُ وقلتُ لأحدِ الجُند:

– أين الجليل؟ أين طريق الجلجلة؟

– تقدَّمْ أيها الرجل... تقدمْ ولا تُكثِر من السؤال...

– أريد الجليل دُلّني عليه فقط...

دفعني إلى الأمام بضربةٍ من عَقِبِ رُمحه على كتفي، فوقعتُ على الأرض، وأنا أحاول النهوض، رَكَضَ إليَّ وهو يصرخ:

– تحرَّكْ... تحرَّكْ...

وعندما اقتربَ مني شعرتُ بشراسةٍ تُشْبِهُ شراسةَ الجنود الذين كانوا معي في الأسرِ، أمسكتُ به ورميتُه على الأرض، ورفعتُ الرُّمحَ أمام رقبته، عندها توقَّفَ الجنود ولم يستطيعوا فِعْلَ شيءٍ، فحياة قائدهم تحت حركةٍ من يدي، وقلتُ لهم:

– لا أريد سوى رؤية الجليل... فقط الجليل...

دَلّني الجنديُّ المرتمي على الأرض بإصبعه إلى الجليل، نظرتُ إليه وإذ هو مُنتصِبٌ بنفس الشموخ الذي عهدتُه فيه، نظرتُ إليه... لأتذكَّرَ تاجَ الشَّوك والسِّياط والصَّليب الثقيل، تذكرت طَرق المسامير والدَّم النَّازف، بدأت الرُّعشة تأخذُني بهدوء... رميتُ الرُّمح وابتعدتُ عن الجُندي بعد أن تغيرت حالتي فقد راحت رُوحي تنسلُّ مني وتعود إليَّ وأنا أُردِّدُ:

"فلتكُنْ مَشيئتُك"

تابعنا المشي خارج أسوار القُدس، وكانت هناك طلائع من الجيش تنتظر خُروجَنا، وعندما تجاوزنا السور الضخم أعطوني فرسًا، وأعطوا جنودي أيضًا جيادَهم وقال لي أحدهم:

– حمدًا لله على سلامتك أيها الأمير... إن السلطان ينتظرك في دمشق.

تقدّم الركب وبدأنا بالمسير باتجاه دمشق وعندما ارتقينا السفحَة أمام القدس نظرت خلفي فوجدها ترتفع بفخر وهي تحتوي على القبة الذهبية الكبيرة... قبة الصخرة والصليب الضخم... كنيسة القيامة شعرت بأن روحي مُعلقةٌ في هذه البقعة من الأرض.

بعد عدة أيام وصلنا دمشق، دخلناها وكانت كاللوحة المنقوشة في الصخر، رائحة عتيقة تفوح من حجارها وعبق الماضي وحضارته، كان تشبه وجه الشمس التي كانت تُسمى قديمًا "سوريا" نعم هذ هوا

اسم الشمس، وكنا قد ارتحنا واغتسلنا وارتدينا ملابسنا النظيفة قبل أن أدخل إلى السلطان صلاح الدين، جاء الحرس إليّ وتقدَّمَ أمامي ليُرافقني إلى قصر الحكم حيث السلطان، وعندما دخلت إليه شعرت براحة كبيرة هدّأت من روعي، نظرت إليه لأراه يجلس على كرسيه وقد وضع على كتفه وشاحًا أزرق موشًّى وعمامة كبيرة بنفس اللون وقد بدت لحيته بنفس اللون أيضًا، وأطلقت عيناه نظرات رحمةٍ لم تكن موجودة في أعين الملوك والحكام الذين أَلِفْتُهم، لماذا اختلفت هذه النظرة؟ تقدّمت إليه وانحنيتُ لأقدم له طاعتي فقال لي:

- حمدًا لله على سلامتك... لم أكن أتوقع أن تقع في الأسر وأنتَ أحدُ أقوى قادتي...

قال هذه العبارة وقَهْقَهَ بمرحٍ وأومأ لي بالجلوس بعد أن رَجَعَ إلى كُرسيِّه، وعندما اجتمع الرجال حوله وهم من ذوي الرأي عرفت أنني كنتُ في رحلة استطلاعية لمنطقة حطين، فقد كَسَرَ الأميرُ "رينو ديشانتيو" الهُدْنَةَ، وقَتَلَ أختَ السلطان بعد هُجومِهِ على قافلتهم، وأن الجيش جاهزٌ للتحرُّك إلى هناك، وبعد قليلٍ قال السلطان:

- هيا يا رجال سنذهب إلى الجامع الأموي لنصلي جماعة قبل أن ننطلق إلى هدفنا آملين أن نصلي صلاتَنا القادمة في مدينة القُدس الشريفة بعونه تعالى...

دخلنا رِحاب الجامع الأُموي في دمشق، لقد كان ساحةً كبيرةً مربعة الشكل وكأنها وطن لحمائم الأرض، والأعمدة والقناطر تحيط بها من كل الأرجاء وفي الوسط تقبع عليّة مثمنة الجُدران مرفوعة على ثمانية أعمدة مُرصّعة بالنُّحاس المُلوَّن، وعندما اقتربتُ منها شعرتُ أن فيها سِرًّا من أسرار الحياة، دخلنا إلى رحاب الجامع الكبير، السجاد قد غطى أديم الأرض والسقف منقوش بآيات القرآن الكريم وأسماء الله الحسنى، وفي الوسط هناك يقبع مقام النبي يحيى بن زكريا سلام الله عليه، اقتربت من الجثمان لأضع جبيني عليه وآخذ منه طاقة إيجابية قد شعرت بوهجها مُذْ دخلتُ، وقفت في الصفِّ الأول وكنتُ قريبًا من السلطان صلاح الدين وبدأنا صلاتَنا، وشعرت أثناء هذه الصلاة أني قد عدتُ لأتوحَّدَ مع الذات العُليا، ذبذبات الروح الخالدة بدأت ترفعُني، وسماعُ صوتِ الإمام يرتل آيات القرآن جعلت الموسيقا الكونية ترفع أجنحتي على فضاء السُّمو النفسي، فقد تشابهت قُدسية الصلاة هذه مع قُدسية الصلاة في الكنيسة، عادت لي قدرتي على أن أسبح في معالم الروح والذات الخالدة، وبقيتْ في هذه الحالة حتى انتهت الصلاة ونهضْنا من سُجودنا الخاشِع الجليل.

تقدّمت طلائعُ الاستطلاع عند شُروق الفجر، وكنتُ على رأسِهم لأتقدَّمَ كامل الجيش، فقد كانت خُطة السُّلطان أن نُسيطرَ على موارد الماء في حطين، لأن في هذا الوقت من السنة ترتفعُ حرارة الجوِّ كثيرًا والفرصة الوحيدة للفوز بالمعركة هي السيطرة على الماء.

كانت فُلولُ الجيش الفرنجي قد انهزمت أمامنا بعد الجولة الأولى وصعدت إلى التلال العالية في حطين، وقد قاربت الشمس على المغيب، وكان السلطان يُخطِّطُ لأن نُهاجِمَ هجومًا ليليًّا، ولكني عارضته عن هذه الفكرة؛ لأن الجنود في حالة صيام ولا بد لهم بعد فترة الإفطار من الراحة عقب عناء الجوع والتعب طيلة النهار، وأن نُرسل مَنْ يستطلع المكان التالي لتَقدُّمِ الجيش في الصباح عندما ينتهي الجُند من فترة السَّحور.

تقدَّمَ الجيشُ بثلاثِ فرقٍ كبيرة، كان السلطان صلاح الدين يقودُ القلب، ويقودُ الميمنة ابن أخيه الأمير تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبري الميسرة وهم من القادة المخضرمين، وكان تَعداد الجيش على ما أذكر 12000 من الفرسان و13000 من الجنود المشاة وفاق عدد المتطوعين من مصر واليمن والحجاز 60000 تأخّرت الفِرَقُ الثلاث، وتقدّمتُ مع فرقتي الاستطلاعية إلى التلة المرتفعة بعد انسحاب الجيش إليها، وبدأت النِّبالُ تتخاطَفُ رجالي فلم نستطع الهروب، وصحت بالجنود ليتقدموا فقد كانت الفرصة الوحيدة للنجاة، وقد أصابني سَهْمٌ في كتفي، وسَهْمٌ في فخذي اليمنى، عندما أصبحنا بمواجهة الجيش الآخر إشتبكت السيوف، وبعد قليل توقفوا ليخرج قائدُهم ويصرخ:

– أريد أن أبارز قائدكم فليخرج لي...

خرجت وأنا على جوادي، نزلتُ في الساحة التي صَنَعَها الجيشان، وانقضضت عليه، وأنا في حالة الهجوم لمحت منطقة واضحة من رقبته فغرزتُ سيفي فيها، وسحبتُه بسرعةٍ لأقتلعَ رأسَه، سقط من فوره وبدأت أصواتُ الرجال بالارتفاع، خرجَ شخصٌ آخر ويبدو عليه الغضبُ، لم أمضِ في مواجهته وقتًا طويلًا فقد طعنْتُه بسيفي فخرجت أمعاؤه ومَعِدَتُه أمامه تلتمعُ تحت ضوء الشمس، ومن ثم خرجَ شخصٌ آخر... وعندما لمحتُه شعرت أني أرتجِفُ من الخوف فنظراته لم تكن كغيره، لقد كان كالصخرة الجامدة، أحسستُ أني يجبُ أن أنسحبَ، ولكن أنا قائدٌ ومسؤول أمام جيشي، وخاصةً عندما وصلني خبرُ تَقدُّم صلاح الدين بفِرَقِ الجيش الكاملة واستيلائه على بحيرة طبريا، وأنه قد باشَرَ حَرْقَ الأعشاب اليابسة في حطين ليرفع درجة الحرارة ويُجبر الجيش على النزول عقب انهزام باقي قوات الجيش الفرنجي إلى التلال كجولة الأمس، قررتُ أن أُنهي هذه المبارزة ليستطيع الجيش الاشتباك والتقدُّم، ولكن رغم هذه الأفكار بدا الخوف يشلُّ حركتي فقد كانت جراحي قد بدأت بالنزيف والتعب نال مني، تقدَّمتُ إليه ولم أستطع أن أتذكَّرَ أي شيءٍ من رحلتي المعرفية فقط شَعرتُ بأني خائفٌ من هذا المُقاتل...

الباب السابع

"مَنْ أَعْرَضَ عمّا بَيْنَ الأَزَلِيّةِ وَالأَبَدِيّةِ فَقَدْ تمسّكَ بعُرْوَةِ الحَقِيْقَةِ".

الحلّاج



عنْدَمَا رأيتُ جسدي مُسجًّى على الأرض والجنود قد تشابكوا بالسيوف وبدأت المعركة تتقدَّمُ باتجاه النَّصر...

النصر؟ أيُّ نَصْرٍ والنَّصرُ لمن؟ لقد فقدتُ رُوحي المعرفيةَ ولا أستطيع أن أجمع شظايا وجودي التي تناثرت في الأرجاء الأربعة، لم أعد أشعر بألم إصاباتي ولا بتعبي المُجْهِد، ولكنني كنتُ أتذكر صلاح الدين، تلك الهيبة الحاكمة التي لم تأخذ من الحُكم سُلطته وشَهْوته، ولم تُفارِقْ عينيه الرحمة والتسامُح والزُّهد الصُّوفي، فعرفتُ أن من يحرك الغايات فينا هو الروح، فالروح كالمرآة إذا تعربش عليها الصدأ عكست صورة مشوهة غير صحيحة، أما إذا كانت صقيلةً صافيةً عكست الحقيقة بجوهرِها كما هي، والصَّدأُ هو صدأ الجسد ومطالبه الدُّنيوية... نعم هذا هو الصَّدأُ الحقيقيُّ... كالسيفِ البتَّارِ في قِرابه، فمهما يكن حادًّا وصلبًا، عند قِلة الاستعمال يناله الصدأ وتنبو

شَفرتِه، والنفسُ البشريةُ كلما أهملت تغذيتها بنور الحكمة غرقت في وَحْلِ الجسد وفي رُكام المادة.

شعرتُ بعد الهدوءِ الذي حاق بي أن نسمةَ من البرد الجبلي تُرعش أطرافي وتسري بها، فأدركتُ أني رجعتُ إلى جسدي، ولكن ليس جسدي الذي أهلكته المعركة والسيوف، حرّكت رِجلي اليمين فلم أشعر بمكانٍ للجرح الذي فتح فَمَهُ بعد السَّهم المُنغرس في اللَّحم، وحركتُ كتفي فلم أشعُرْ بأيِّ إصابة أيضًا، رَسْمتُ على شفتي ابتسامةً دافئةً ونهضتُ بسرعةٍ قبل أن أرفع أجفاني، ولكن شعرتُ بمكان المسامير في كفوفِ يدي، لكن لا بأس فقد اعتدتُها وأحببت أثرَها فعلًا.

فتحتُ عيني فوجدتُ نفسي مُستلقيًا في الغابة، وأمامي في البعيد الدَّرج العالي الذي كان يتسلقُ الجبلَ مُتعرجًا منهكًا ليغيب بين تلك الأشجار الباسقة الكثيفة الكهلة، وصوت الطيور يخالط نسمات النهار، استقمتُ بجسدي ورحتُ أجمعُ خُيوطي المبعثرة حولي في اتجاهات كثيرة، جلستُ جلسةً مُتوازيةً وبدأت أبحثُ في ذاك البريق الذي كان يرى به الأعمى الطريق للوصول إلى أول الدرج لأرتقيه، لأن شعوري دَلَّني على أنه الطريق الوحيد للعُبور، رحتُ أبحثُ عن بريق السَّرابِ في عَقلي، وكلما اقتربتُ منه هاجمتني صورٌ مُتشابكةٌ،

فابتعد عني الطريق، قررتُ أن أجْمَعَ هذه الصور وأنظمَها لأستطيعَ الرُّقِيَّ إلى المرحلة التالية... السَّراب اللامع...

راحت الصور تتلاحَقُ فوق رأسي، وكنتُ قد بدأتُ بجمعِها...

– الصورة الأولى: الأعمى الذي فَقَدَ حياتَه من أجل فتاةٍ جرّته إلى مُتطلباتِ المادة، بعد أن كان في رِفْعةٍ عنها، وقد عاشَ في هذه الرِّفعةِ وذلك الانعتاقِ عُمرًا مديدًا.

– الصورة الثانية: الفتاةُ التي رأت أن الحبَّ والعطاء قد يكون من الجسد لا من الروح، فلوّثت حبَّها للأعمى بشهوة الجسد وأطماعه مُتناسيةً أن المحبة تُعطي رفعةً من نفس جوهرِها.

– الصورة الثالثة: العجوز التي كانت في الليل عمياءَ، وفي النهار بصيرةً، فهي صورة الحكيم تكررت أمامي لأكمل الطريق وأتابع تجربتي هذه.

– الصورة الرابعة: سيزيف الذي فَقَدَ حياتَه وحُرِّيَّتَه لأنه كانَ عبدًا لكبريائه وطموحه فقد حطّ أخلاقه موضعًا رخيصًا.

– الصورةُ الخامسة: السَّيد المَسيح الذي نَزَلَ ليأخُذَ خطايا البشر، ويَمْسَحُ جَهْلَهم بدمِه الذي طهّر به الأنْفُس وعلّم بتريفِه البشريةَ معنى كلمة المحبة.

- الصورة السادسة: إبليس الشيطان الذي خُلق من النور والضياء قبل وجود العالم المادي، وفهم طبيعة الخلق والكون ولكنه جَهِلَ مكانتَه ومكانة العقل الكامل الذي جُمعت فيه خُيوطُ الوجودِ ومعالِمُ الذات الكاملة.

- الصورة السابعة: وهج وانعكاس صورة النبي العربي حبيب الله وصفيه، والذي أتى ليكمل ما قد بدأه السابقون، كان الأخير الذي أمَّهم، وصَعَدَ للسماء ليُعلِّم الخلائق أن الأخير هو نِهاية العلم واكتمال الصورة.

- الصورة الثامنة: نيرون الذي تخلّص من سلطة الناس ورَضَخَ تحت سلطة الشهوة يبيح ما حرّمت الأخلاق ويُفسد ما أصلح غيره ويرفع الرذيلة في نفوس أتباعه ليُنزل الظّلالَ والجَورِ بدل الحكمة والعدل.

- الصورة التاسعة: سينيك الحكيم الذي قَبِلَ أن يُعلّم نيرون رغم معرفته بخَلَلِه العقليِّ، إن زرع العلم والمعرفة في هذه التربة الفاسدة قد تنتج نباتاتٍ وأثمارًا سامة، وقد فَتكتْ به عندما نَضِجَتْ لأنه هو الذي زَرَعَ.

- الصورة العاشرة: أيوب النبي الذي خَرَجَ من الدنيا قبل أن يُغادِرَ جسدَه بزمنٍ بعيدٍ، فقد تَرَكَ مَطالِبَ الدُّنيا، وضَحَّى بجسده مقابل نقاء روحه وصحة إيمانه وقوة يقينه.

- الصورة الحادية عشرة: الملك الذي حَكم العالم، وقهرته المعرفة وأرّقته أُحجية الحجر الذي كان هو نفسه وحيًا من المعرفة، ظَهَرَ في مكان لا وجود له وزمان لا تحديد له ولكن ليُرجِعَ النفسَ إلى حجمِها الحقيقيِّ.

- الصورة الثانية عشرة: السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي غيّرت الدنيا كل السلاطين ولم تغيرْهُ، وغيّر الحكم نفوس البشر ولم يغيرْهُ، بل هو الذي بدّل الحكم إلى حُكم الأخلاق قبل حُكم السيف والقوة.

والآن صفت صورة الطريق أمامي، أستطيع أن أرى السبيل إلى الدَّرجِ، وأن ألتمسَ الوصول إليه لأخرج من هذا المكان وأرتقيه كُلَّه دون توقُّفٍ حتى أصل إلى قِمَّتِه، فهناك شيء يُناديني وسوف أُلبي نداءه فورًا...

مشيتُ حتى بدأت الدرجات أمامي ورحتُ أرتقيها بهدوءٍ، وكلّما ارتفعتُ شعرت بالراحة أكثر، في منتصف الطريق وقفتُ لأنظر حولي فرأيتُ تضاريس ساحرة وخلّابة، وسمعتُ هديرَ شَلالٍ غاضبٍ وضخمٍ، أغمضتُ عيني لأتأكد مما أسمعُ...

- فعلًا... إنه هو... هو الشّلالُ الكبيرُ... لقد عُدتُ إلى المعبد... رجعتُ إليه...

ورحتُ أركضُ فوق الدرجات المُتعالية بعضها على بعضٍ حتى وصلتُ إلى نِهاية الدَّرج، لقد كانت السَّاحة أمام الدرج مُغطاةً بأوراق الزهر وأوراق الشجر الأخضر، ومَرصوفةً بأحجار بُنية جميلة، تقدَّمتُ فوجدتُ الممر بين الحدائق والأشجار وقد غطّاها الخُشوعُ والتَّناغُم، مشيتُ قليلًا وأنا أرتجِفُ من فَرَحي واشتياقي، وشعرتُ أني لم أغادر المكان لحظةً، تجاوزتُ المكان لأرى المعبد وقد انتصب في ضباب الحكمة والطيور تبلبل حوله ترانيم المحبة، تقدمت إليه ورفعت نظري لأراه ملتصقًا بالجبل العالي خلفه وقد خرج منه البناء الكبير، طوابق من الأعمدة والأروقة الكبيرة الضخمة تطفلت عليه النباتات لتعطيه دفئًا من الطبيعة الأم، وأيضًا انسكبت منه بعض الجداول الصغيرة لتجتمع أمامه وتَتَّحِدَ في السَّيرِ إلى بُحيرة اللُّوتس التي كانت تَستقرُّ في وسط الحديقة الكبيرة، وقد خيّم السكونُ على وجهِها.

اقتربتُ من الحديقة، وحاولتُ أن أُجرّب مَدَّ يدي فيها لأرى إن كانت سترفضني كالمرة السابقة أم ستقبلُ مني؟ ولكن قبل أن أغمس يدي في الماءِ أغمضتُ جفوني وحاولت أن أشعر بذبذبات مائها وتناغمه مع ذبذبات روحي الهائمة، وسمعتُ خَريرَ الماء في داخلي يتدفَّقُ من كلِّ صَوْب، ارتفعَ ماءُ البحيرة وغمرَ يدي... رشفتُ منه رَشْفةً واحدةً، وعرفت أني لم أتذوق الماءَ طيلةَ رحلتي، رجعتُ إلى الغرفة التي كنتُ فيها، طرقتُ الباب، فلم أسمع صوتًا، دخلتُ إليها

وكانت العتمة تسكن بطنَها، نظرتُ على الطاولة فإذا هناك شمعةٌ... أو نصف شمعة رغبت بأن تشتعل لأرى غرفتي، فضياءُ الشمعة هو الذي سيسمح لصورة الحقيقة أن تظهر واضحةً، لا شيء سوى الحقيقة، فالعين لا ترى الحقيقة دون شمعة الحكمة...

اشتعلت الشمعةُ مُلبيةً رغبتي، ونَثرتْ حفنةً من ضيائها في أرجاء الغرفة، لم يتغير فيها شيء فهي كما تركتها، شكرت الشمعة وهممتُ بالخروج، فردت عليَّ بأن خبا نُورُها وخمدتْ نارُها، أغلقتُ الباب وخرجتُ، وكنتُ قد تأكدتُ من أني موجودٌ في المعبد ذاته، فتوجهتُ إلى الرِّواق الرئيسي لأبحثَ عن الحكيم الذي أرسلني إلى رحلتي هذه...

دخلتُ الرواق ومشيتُ فيه، فوجدتُ مَجموعةً من الطُّلاب يرتدون أثوابًا بُنيةَ اللَّون كالتي ارتديتها أنا هنا، وعندما لحوني أدخل الرواق وقفوا وانحنوا وهم يشبكون أيديهم أمامهم كنوع من التحية القلبية، لقد كانت وجوهُهم سعيدةً فَرِحةً، عليها لمسةُ السكون، وقفتُ أمامهم لحظة ثم دخلت إلى القاعة وانتصبتُ في مُواجهتِهم وأنا أنظرُ إليهم، أطلقتُ روحي قليلًا بينهم فعرفت أنهم ينتظرون أول درسٍ مني، فقررتُ أن أُلبِّي رغبتهم قبل أن أرى الحكيم... ربما كانت هذه أيضًا تجربة وضعني فيها...

- إذا أردنا أن نتعرف حقيقةَ الوجود فيجب علينا أن نشعرَ بهذه الحقيقة، فلا مادةَ دون نفسٍ، ولا نفسَ دون رُوحٍ، ولا رُوحَ دون حقيقةٍ، ولا حقيقةَ دون مَعرفةٍ، ولا معرفةَ دون حكمةٍ، ولا حكمةَ دون انعتاقٍ، ولا انعتاقَ دون إيمانٍ، ولا إيمانَ دون مَحبَّةٍ للذات وانصهارٍ في ماهيَّتها.

سنبدأ من البنية الأولى وهي المادة... إذا سألتكم ماذا ترون خلف هذا الحائط ماذا ستجيبون؟ ستجيبون وفق معارفكم العقلية الجسدية، فكل واحد منكم سيحاولُ أن يستنتج من صور دماغه وخبرته وتجربته البسيطة أشياء منطقية غير مُعقَّدةٍ...

أشرت بأصبعي إلى واحد من التلاميذ وكان مرتبكًا وقلت له:

- ماذا ترى؟

جاوبني دون أن ينظر إلى الحائط:

- لا أدري...

نظرت إلى آخر بدا عليه الذكاء الداخلي ووجهت له نفس السؤال، فنظر إلى الحائط وفكر ثم قال:

- شخصًا يجلس على طاولة ويقرأ كتابًا...

قلت لنفس التلميذ الذي قال: "لا أدري":

- اذهب وانظر بنفسك...

فعاد وفي وجهِه ملامِحُ دهشةٍ لشيء غير منطقي، فقد رأى ما قاله زميله، فسألتُه كيف عرفت ما يوجد خلف الحائط؟

- إن كلمة لا أدري هي التي تُبعد الحكمة والمعرفة وتبدأ بعمل العقل الواعي وتُغْلِقُ على العقل الباطني بابَ الانطلاق...

- نعم هذه هي الحقيقة، فعندما قال زميلُكم: لا أدري كان يعرف أنه عاجز عن رؤية ما خلف الحائط، ولكن عندما فكَّرَ الآخر بأن العقل لا يتوقّفُ عند حاجز ماديٍّ تلاشت الصورةُ المُعتمة وأطلق عقله الباطن الصورة الحقيقية...

هذا هو الدرس الأول واللقاء الأول بيننا، وغدًا سنلتقي في مثل هذا الموعد وفي هذه القاعة... قلتُ هذه الكلمات دونما تفكيرٍ، فأنا لم أجد الحكيم بعد، وأعتقدُ أن وجودي مرهونٌ بوجودِه هنا، خرجتُ من القاعة لأتَّجِهَ إلى مكتبِه غير محتاجٍ لأحد ليُرشدَني، وجدت الباب مفتوحًا فدخلتُ إلى المكتب لأرى نفس الغرفة التي ارتقيتُ فيها إلى عوالمِ الروح في برج الملك هناك، الشباك الكبير المُطل على الغابة والحديقة - لا المدينة - والبخور المُتكاثف والسجادة، ولكن زاد التفصيل فيها طاولة المكتب التي كانت ترفعُ الأوراق والكتب، اقتربت من المكتب ووجدت مجموعةَ كُتبٍ موضوعةً عليه، وهناك كتابٌ مفتوحٌ كما لو أن أحدًا كان يقرؤُه...

إنه هو.. إنه الكتاب الذي كان على الرفّ الخشبيِّ عند العجوز، فتحتُه فوجدت صورة سيزيف فيه، عرفت لماذا اعتقدتُ أن أحدًا كان يقرأ الكتاب عند العجوز، وضعته مكانَه وأنا أبتسمُ وجُبتُ الكتبَ المرفوعة على الرفِّ العُلوي، فأوقفني عُنوانُ كتابٍ جذبني إليه بسرعة، حيث كان العنوان قريبًا من عقلي الباطن وقد شعرت أنه مألوفٌ لديَّ، سحبت الكتابَ وقرأتُ العنوان:

"رحلةٌ في رحابِ الذات"

قررت أن أقرأ هذا الكتاب بعد أن ألتقي الحكيم، ولكن بَقِيَ العنوان يترددُ في رأسي، جلستُ على الكرسي القديمة الضخمة وألقيت برأسي إلى الوراء وأنا أنتظر أن يأتيَ المُعلم الحكيم، الذي أرسلني في رحلة الذات هذه، وشعرت أن الشموع العشرَ المُعلقةَ على جدران الغرفة تبعث النور بكثافة أزعجتني، فانطفأت ثماني شموعٍ وبقيت اثنتان، وفكرت أن رائحة البخور يجب أن تكون أكثر، فواحت أعواد البخور تُعبِّق بعطرها أرجاء المكتب والممر والمعبد كله، أغمضت جفوني وألقيت برأسي إلى الخلف لأرتاح قليلًا من زحمة الأفكار، وغططت في نومٍ عميقٍ...

خرجتُ من جسدي لأمسكَ الكتاب الذي قررتُ أن أقرأه وبدأت في تصفُّحِه بسرعةٍ، وكانت كلماته تلتصق برأسي مباشرةً وكأنها تنطبع في وعيي المعرفي، لم أشعر بأني أستخدم عيني أو يدي أو

صوتيَ حتى في القراءة، فقط شعرتُ بانسكاب المعرفة من صفحات الكتاب إلى صفحة عقلي فتأخذ مكانها في الجدار الذي تلتصق عليه ملايين الكلمات، وكلما أرد كلمة توهجت لتأتيَ إليّ.

سمعتُ أن أصواتَ التلاميذ قد اجتمعت في القاعة فعرفتُ أنهم ينتظرون قدومي في درسهم الجديد، خرجتُ إلى نفس القاعة ودخلتُ، فإذا هم منتظرون والفضول يلفُّ حواسَّهم، تقدَّمت بعد أن أديت لهم تحية المعبد وقلت لهم:

- مَنْ منكم فَكَّرَ في جلسة أمس المنصرمة؟ ومنْ كَتَبَ نتائجَ عنها؟

رفع أحد التلاميذ يده وقال:

- أنا أيها المعلم... كتبتُ ملاحظاتي، ولكن نسيت دفتري الذي كتبتُ فيه الملاحظات في غرفتي...

فطلبتُ إليه أن يقترب إلى طاولتي وأن يُفكِّرَ في الدفتر وشكله الكامل... وبعد قليل استطعت أن أرى صورة الدفتر تنبعث من خياله إليّ مُباشرةً، نقلت ذبذبات هذه الصورة إلى الأثير وأرسلتُ قليلًا من طاقتي التي عرفتها عندما ارتفعت من فوق الصليب، فإذا بالدفتر يتشكل على الطاولة أمام الجميع، فأرجعت الذبذبات إلى طبيعتها ليعود الدفتر إلى حالتهِ المادية.

بدا أن الأمر غير منطقيٍّ بالنسبة لعُقول التلاميذ حتى أن بعضهم أصابه الدُّوارُ واقتحم رأسه ألمٌ شديدٌ، فقلتُ لهم:

- إنّ ذبذبات الروح فينا هي التي ترفعُ إدراكنا خارج نطاق الجسد المادي فنسبح في فضاء الذات وننهلُ العلم والمعرفة المُتماهي مع ذاك الفضاء، فكلُّ ما وُجدَ بعد الروح هو أقل منها لذلك تستطيع هذه الروح تغيير حالة الذبذبة المادية فيها من الجامد إلى الأثير وبالعكس، سنخرج قليلًا إلى الحديقة لتجربوا هذه التجربة بأنفسكم.

جلسنا في الحديقة بشكلٍ دائريٍّ حول صخرة كبيرة، وقلت لهم قبل أن تبدأ التجربة:

- يجب أن يكون إيمانُكم بقوة روحكم الداخلية هو المسيطر الوحيد على عقلكم، انصياع العقل لأوامر الرُّوح النقية يكسر حدود الزمن والواقع والقانون المادي، لأن بقاء الروح في قيود الجسد يطفئ فيها قَبسَ الانعتاق الرُّوحيِّ نفسَه.

وضعتُ ورقةَ شَجَرٍ على الصخرة في المنتصف، وابتعدتُ عنها قليلًا، ورُحتُ أُحرِّكُ طاقةَ الجاذبية حولها وأنا أتمتّع بصبر أيوب النبي الذي صَبَرَ سبع سنوات على ألَمهِ. فقد كانت مرحلة الصبر هذه سهلةً مُقابلَ ما مررتُ به سابقًا، رفعتُ الورقةَ بعد أن رأيتُ طاقة الوجود حولها مُنصاعةً لأمري، وقلتُ للتلاميذ:

- ركزوا في تحريك الورقة بتغيير قانون الجاذبية حولها، ولكن لا يتغير هذا القانون دون التمعُّن في أصل الوجود المعرفي فينا...

بدأ التلاميذُ بالتركيز في ذاتهم وقد كنتُ أرى إشعاعات النور والهالة المعرفية تكبرُ حولهم وكأنها فُقاعةُ ماء، وعندما اتَّحدتْ تلك الهالات توجهَّتْ لتُحرِّكَ الورقةَ وتُسْقطَها على الأرض، انتهت التجربةُ بعد أن شعرَ التلاميذُ أنهم دخلوا في الباب الأول من بوابات الرُّوح، فتحريك تلك الورقة كانت بحَدِّ ذاتها أول معرفة من معارف الذات، فقلتُ لهم:

- الخطوة الأولى في رحلة المعرفة هي معرفة الذات، وبعدها نستطيعُ التَّعرُّفَ إلى الكون بأكملِه في لحظاتِ تأمُّلٍ ذاتيةٍ.

سألني أحدهم:

- وكم يستغرق التعرف إلى الكون في هذه الفُسحة الذاتية؟

- يستغرق منّا بضعَ ثوانٍ فقط لإدراكه ككل.

- ومعرفتنا لذاتنا كم تستغرقْ؟

- قد تحتاجُ منا مئات السنين لنعرف ذواتِنا بشكلٍ صحيحٍ.

- هل الذاتُ أكبرُ أم الكونُ؟

- الذات هي الكون ومنها انطلق الكونُ، ومعرفةِ ذواتنا هي معرفة نظام الكون وحقيقة وجوده ووجودنا، فلا معرفة للذات قبل

معرفة أنفسنا ولا انعتاق قبل الخروج بهذه الأنفس إلى مناهل الحكمة وأصولِها.

تركتُهم ورجعتُ إلى المكتب لأنتظرَ الحكيم وقد أعطيتُهم موعدًا جديدًا ليوم جديد... دخلتُ المكتبَ وارتميتُ فوق الكرسي الكبيرة من جديد، ورحتُ في نومٍ عميقٍ شعرت أنه يأخذ طاقتي الحيوية، وأني قد أستفيقُ لأجِدَ المُعلّمَ في انتظاري.

فتحت عيني على صوت خرير الماء الغاضبِ، فعرفتُ أن أحدًا اقترب من البحيرة، وأعتقد أنه غاصَ في رُكام الجسد، وفَقَدَ شيئًا من حكمته، لهذا رَفضتْ البحيرة أن تُعطيه الماء، رفعتُ رأسي فوجدتُ أن الشمس قد شارفت على المَغيب، نهضتُ لأجِدَ أنّ الكتاب لا يزال في مكانِه...

- هل كانتْ رُؤيةً؟

اقتربتُ من الكتاب ورحتُ أتذكّرُ بعض الكلمات والجُملِ، وقلتُ: إنّ هذه الجملة موجودةٌ في صفحة 164، فتحتُ الصفحة وقرأتُ فيها:

- عندما تبتعدُ النَّفسُ عن نورِ الحكمة ستُعطي الظلامَ دورًا ليظهر، فإنّ النفس كِفتا الميزانِ بين الظلام والنور، فبغياب أحدهما يظهر الآخر، حيثُ إنه طاقةُ النفس، وهذه الطاقة لا تَفنى، ومن يشعر

أن كفَّة ميزانه مالت إلى الظُّلمة عليه خَوضُ تَجربةٍ يَعبرُ فيها في الأبوابَ السَّبعةِ للرُّوح ليعودَ صافيًا نقيًّا...

عرفت أن الرؤيا في الحلم لم تكن خيالًا، وفهمتُ رِحلة الرُّوح في هذه الجملة، فقد اختصرتْ تاريخي المعرفي كله...

خرجتُ من المكتب وتوجهتُ إلى الشخص الواقِف هناك، إنه بحاجة إلى المعرفة والنور المعرفي في جوهر الحِكمة، كانت هالته المعرفية مُتشظِّيةً في اتجاهاتٍ عديدة، وقد خَفُتَ وَهَجُ النور المعرفي حوله، فأسرعتُ في شحن طاقتي الروحية لترتفعَ الذبذباتُ إلى الأثير، فعندما كنتُ على الصليب كنتُ أُوزِّعُ الرَّحمةَ على الجميع دون استثناءٍ، وقد نالَ من هذه الرحمة من سَمِعَ بترانيم الفِردوس، ومَنْ يشتاقُ لتلك الترانيم من بعدي، اقتربتُ منه بعد أن همّ بتغطيس رأسه في البحيرة من شِدَّة غَضَبِه.

كان طويلًا أبيض اللّونِ يحملُ عينين زرقاوين تحملانِ بريقًا من حيواته السابقة، وتفاصيلُ وجهِهِ تدلُّ على أنه من أهلِ الحِكمة التي أضاعَها جسدُه، شارباه الأشقران ولحيته الخفيفة والشامة على خدّه الأيمن وضحكة ترتسم على فمه القاسي، أرهقته رُوحُه في البحثِ عن الحقيقة، وقد تملّكته طِباعُ الظَّلامِ، ولم يستطع حتى أن يَشربَ من الماء، رغم التعب والإرهاق الجسدي هذا الذي بدا عليه، وجدتُ في رُوحِه صفاء النُّزوح إلى الذات حيثُ اجتمعت حول ترنيماتِي ذبذباتُ

رُوحِه التي تناثرت منذ زمن بعيد عنه، بهذا الاجتماع حَقّقَ شُروط الدخول في الأبواب، ولا بُدَّ له من رحلةٍ في رحاب الذات ليَجدَ ذاتَه ويعود بها إلى نُقطة البداية... اقتربتُ منه وقلتُ له:

- لا يمكنُك أن تأخذَ من الحياة إلّا بعد أن تشعُرَ بها...

نَظَرَ إليّ وقد أحاطته الغرابة من كلامي هذا، تقدمت من البحيرة ومددتُ يدي في النبعِ، فارتفع الماءُ للحافّةِ لكي يشربَ، أردتُه أن يشرب منه رشفةً واحدةً، فإن شَعر بالارتواء أكملتُ رحلتي معه من هنا، وإن لم يشعر كان لا بدّ له أن يلتحق بالتلاميذ في هذا المعبد، وعندما أخذ الرشفةَ الأولى انتبهتُ لانعكاس خيال صورتي على الماء، وما لفت انتباهي في صورتي بعيدًا عن الصلعة المُلتمعة تحت أجنحة المساء الضحكة الجميلة التي كانت ترتسمُ على وجهي رغم أنها لا تنتمي لتفاصيلي في الوهلة الأولى.



إنّ أصل الوجود هو الرُّوح، وهي الجوهر الذي يحمله جسدُنا، فإذا كانت الرُّوحُ نَقيَّةً صافيةً قادت الجسد إلى بوابات المعرفة، أمّا إذا كانت مُنقادةً لمطالب الجسد ضاعت في فوضى الوجود وضَيعتْ الجسدَ معها.

إن الروح جوهر صافٍ، إذا صقلتهُ بالمعرفة وموادِّ الروح سَمَتْ وارتفعتْ في طريق شُموس الحقيقة، أما إذا أغرقتَها في وَحْلِ الجسد خَبَتْ شُعلتُها وابتعدت عن الطريق...

إن المعرفة لا تحدُّها الاتجاهاتُ ولا تدخلُ في غيبوبةِ الزمن، ولا تتأثرُ بالمكان والمسافات، فهي موجودة قبل هذا كلِّه، سبقتهم بالوجود فارتفعت بصفاتِها عنهم، الأسبق هو الأرقى بصفاتِه، بدأتِ المعرفةُ وانحدرت منها الموجوداتُ، وبقيتْ مُتصلةً تمدُّهم بالحقيقة من رُوحها لأنها الأقدم والأبقى.

د. أيوب الحجلي



- مواليد 1981
- حاصل على دكتوراة في علم النفس
- صدر له: • معتقدات مظلمة / دار الحروف سوريا 2012
  - العبادات الآثمة / دار الحروف سوريا 2012
  - آلهة الدموع / دار الحروف سوريا 2013
  - تحت ظلال النجوم / دار كيوان سوريا 2015



دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE